

الفصل التاسع

فى مسألة التوسل والوسيلة

التوسل — لغة — من وسل يسل — من باب وعد — أى : رغب وتقرب ، ومنه جاء اشتقاق « الوسيلة » .. وهى ما يتقرب به الى الشيء .. توسل اليه بوسيلة م أى تقرب اليه بعمل .. يقول ابن منظور : « الوسيلة : هى المنزلة عند الملك ، وهى الدرجة ، والقربة .. وسل فلان الى الله وسيلة : اذا عمل عملا تقرب به اليه ، والواصل : الراغب الى الله ..

قال لبيد :

أرى الناس لا يدرون ما قدر لهم

على كل ذى رأى الى الله واسل

وتوسل اليه بوسيلة : اذا تقرب اليه بعمل ، وتوسل اليه بكذا : تقرب اليه بحرمة آصرة فعطف عليه .. والوسيلة : الوصلى والقربى ، وجمعها : وسائل (١) .

ويتفق المعنى الشرعى للوسيلة مع المعنى اللغوى لها .. يقول تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة ﴾ (٢)

أى : أجيئوا الله بطاعته وامثال أوامره واجتنبوا نواهيه ، واطلبوا القربة اليه بالعمل الصالح الذى يرتضيه .. وعن قتادة : « تقربوا اليه بطاعته » ..

وروى الحاكم بسنده ، عن حذيفة أنه سمع قارئاً يقرأ هذه الآية فقال : القربة .. ثم قال : « لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أن ابن أم عبد من أقربهم الى الله وسيلة » ..

(١) لسان العرب ، لابن منظور ، مادة (و س ل) .

(٢) المائدة : ٣٥

ويقول جل شأنه : « أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة
أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه » (٣) .

أى : يطلبون الزلفة والقربة من الله ، ويرجون بطاعتهم وعبادتهم
رحمته ، ويخافون من عذابه ..

وقد تكون الوسيلة : منزلة خاصة وعلامة مميزة لقرب خاص ،
هو أعلى أنواع القرب .

فمن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :
« من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة
القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته
.. حلت له شفاعتى يوم القيامة » .

ويبين الحديث الآخر الذى رواه مسلم بسنده عن عبد الله بن
عمرو .. أن الوسيلة فى هذا الحديث هى قوله ﷺ : « منزلة فى الجنة
لا تنبغى الا لعبد من عباده ، وأرجو أن أكون هو ، فمن سأل الله لى
الوسيلة حلت الشفاعة » ..

والتوسل الى الله تعالى .. يكون باسم من أسمائه ، أو بصفة
من صفاته .. وهذا هو التوسل المطلوب ..

ويكون بعمل صالح قام به الداعى .. وهو جائز مشروع ومرغوب
فيه .. بل منه الواجب الذى لا يتم الايمان الا به .
كما يجوز أن يكون بطلب الدعاء من رجل صالح يدعو له ، وهو
نوع من الاستشفاع بأحد الأحياء فيما يطلبه العبد من ربه .. وهو
جائز اتفاقاً ..

أما التوسل الى مقبور انقطع عمله وانتهى أمره ، أو الاقسام على
الله تعالى بذاته أو بجاهه فهو الممنوع شرعا ، لأنه نوع من الشرك ..
لأن التوسل هو التقرب الى الله تعالى بما يجب مطلقا ، أو التماسا
لحاجة ما ، نتيجة حتمية للتقوى ، وثمرة طيبة للايمان ..
وستحدث عن الأنواع الثلاثة الأخيرة للتوسل ، فى حينه ..

* * *

● الوجه الآخر للعملة :

يعتقد الصوفيون بجواز التوسل والتشفع والاستغاثة بالأنبياء والصالحين ، فى حياتهم وبعد مماتهم .. كما يعتقدون بجواز التبرك بأثارهم وقبورهم ، والتمسح بها وتقبيلها التماسا لبركة ساكنيها وتعظيمها لهم !!

ويرون أن التوسل والتشفع والاستغاثة كلها بمعنى واحد .. وليس لها فى قاوب المؤمنين معنى الا التبرك بذكر احباب الله تعالى .. لما ثبت - عندهم - أن الله يرحم العباد بسببهم ، سواء أكانوا أحياء أم أمواتاً !!

ويقولون : ان المؤثر الموجد وان كان فى الحقيقة هو الله تعالى .. فان هؤلاء - الموتى - سبب عادى فى ذلك لا تأثير لهم فى ذواتهم ، وذلك مثل السبب العادى ، فانه لا تأثير له !!

ولهذا : لا وجه - عندهم - لمنع التوسل مطلقاً !! (٤)
ويقول الأستاذ موسى محمد على : « وهو - أى التوسل - على ثلاثة أنواع :

النوع الأول : أن التوسل - أى بالنبي ﷺ - بمعنى أن طالب الحاجة يسأل الله تعالى به ، أو بجاهه ، أو ببركته .. ولا فرق فى هذا النوع بين أن يتوسل بذى القدر الرقيق قبل وجوده ، وبعد وجوده .. فى حياته الدنيا ، أو فى حياته الأخرى .. فيجوز ذلك فى الأمور الثلاثة (٥) ..

والنوع الثانى : التوسل به - صلى الله عليه وسلم - بمعنى طلب الدعاء منه فى حياته ، وبعد موته فى عرصات القيامة بالشفاعة منه ، وفى حياته المتوسطة فى مدة البرزخ (٦) .

(٤) انظر : حقيقة التوسل والوسيلة على ضوء الكتاب والسنة ، للأستاذ موسى محمد على - ط دار التراث العربى ، ص ١١١ ، ١١٢ .
(٥) المرجع السابق ص ٣٢ . (٦) نفس المرجع ص ٤٢ .

أما النوع الثالث من أنواع التوسل : فأن يطلب منه ذلك الأمر المقصود ، • بمعنى أنه — صلى الله عليه وسلم — قادر على التسبب فيه بسؤاله ربه وشفاعته إليه ، فيعود إلى النوع الثاني من المعنى وان كانت العبارة مختلفة » (٧) •

وينتهى — فضيلته — إلى أن : « المراد من الاستغاثة بالأنبياء والصالحين ، والتوسل بهم هو أنهم أسباب ووسائل لنيل المقصود •• وأن الله تعالى هو الفاعل كرامة لهم ، لا أنهم هم الفاعلون — كما هو المعتقد فى سائر الأفعال — فان المسكين لا يقطع بنفسه ، بل القاطع هو الله تعالى ، والمسكين سبب عادى خلق الله تعالى القاطع عنده » (٨) • وعلى هذا •• فالمدار عندهم فى صحة التوسل : « أنه لا يشترط كونه — أى التوسل به — حيا فى دار الدنيا •• وأن القول بأن التوسل لا يصلح بأحد الا وقت حياته فى دار الدنيا قول من اتبع هواه بغير هدى من الله تعالى •• فالتوسل بسيدنا رسول الله ﷺ والتوسل بسائر الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — والتوسل بالصالحين من عباد الله سبحانه ، والاستغاثة بهم جميعا — على النحو الذى عليه الأمة — من اعتقاد أنهم عباد مكرمون ، مقبولو الشفاعة عند الله تعالى بفضله ، هو مما أجمعت عليه الأمة (١٩) ودل عليه الكتاب (١٩) ونطقت به صحاح السنة وأقوال العلماء (١٩) ولم يتوقف فى جوازه ولا فى استحبابه ولا فى سنينته أحد من أهل العلم والفضل من عهد الصحابة رضى الله عنهم » (١٩) (٩) •

* * *

● الحصاد الرزول :

تعالوا بنا إلى مسجد من المساجد التى بنيت فوق الأضرحة فى

(٧) المرجع السابق ص ٤٧ (٨) نفس المرجع ص ٤٩

(٩) المرجع السابق ص ٣١ — وعلامات الاستفهام والتعجب وضعناها بمعرفتنا ، لأن فضيلة المؤلف يخرج المنكرين للتوسل بالمقبورين من عداد الأمة ، وينكر عليهم استدلالهم فى انكارهم له بالكتاب والسنة •• وكأنها أهل الفضل والعلم هم التصوفيون وحدهم !!

القاهرة أو فى أى مدينة أو قرية ، لكى نرى ما يفعلهُ الناس عند زيارتهم
لهذه الأضرحة •• ولنعرف الثمرة التى أنضجتها دعوى الصوفية بجواز
الاستغاثة بساكنى القبور والأضرحة ••

أول ما يصدك تسمية المسجد •• فهو مسجد الولى الفلانى بعد
أن جردوء من صفته كبيت من بيوت الله •• وبدلاً من أن تكون المساجد
لله فلا ندعو مع الله أحدا •• أصبحت أماكن للدعاء لكل واحد
سوى الله !!

وسوف نرى فى هذه المساجد البدعية ما يذهب بأحلام ذوى الأحلام
والعقول !!

هذه طائفة من الناس •• تطوف بالضريح مستلثة لأركانه ، ملتمة
المبركة من ساكنه !!

وطائفة أخرى تقبل الأعتاب ، وتتمسح بالضريح !!
وهذا واحد ينتجهُ الى صاحب الضريح بالسؤال والتضرع ، متذلاً
متخشعاً !!

وهذه أخرى تستعين بصاحب الضريح على ضرثها أو جارتها التى
ظلمتها !!

وثالث يطلب من ساكن الضريح الشفاعة له ، ورابع يطلب النجاح ،
 وخامس يطلب الشفاء من العلك والأسقام ، وسادس يطلب الزواج
والربح لتجارته ••• و ••••• و ••• !!

بل ان الأمر قد يصل بالبعض من الناس الى كتابة العرائض التى
يخطون فيها شكواهم وحاجاتهم ، ثم يسقطونها فى المقصورة المحيطة
بالضريح !!

والبعض الآخر •• يرسل شكواه وحاجته بالبريد ، ويحرص
الحرص كله على لصق طابع التمنغة بأعلاها ، ثم يوجه العنوان الى
شخص ساكن الضريح مقروناً بألقاب التعظيم والتفخيم اللازمة !!

والأدهى من ذلك •• أن يعنون البعض رسائهم - أى يكتبون
العناوين - الى الله تعالى أو رسوله ﷺ عن طريق ساكن الضريح !!

ونتمالك بغض الأنفاس وتجيل النظر في المتوسلين والضارعين
والخاشعين ، فترى أحدهم يدير ظهره للضريح ويستقبل القبلة رافعا
يديه بالدعاء .. فتتوسم فيه الخير فما زال في بعض الناس بقية
من سلامة العقيدة .. وتدنون منه لتصغى لما يقول حتى يستقر في نفسك
الاطمئنان وإذا به يصك سمعك بما يصدمك .. اذ يقول : « اللهم بحق
ساكن الضريح أن تفعل كذا وكذا » !!

وتسأل الناس : ما هذا الذي تصنعون ؟ !
وسرعان ما يأتيك الجواب : اننا نضرع الى الله ، ونتوسل اليه
بهؤلاء الصالحين .. عسى أن يتقبل منا الدعاء !!
وينبرى لك أحدهم قائلا : ألم تسمع قول الله تعالى :
« **وابتغوا اليه الوسيلة** » ؟ !
فاذا قلت : ليس هكذا يكون اتوسل ، وليست هذه هي الوسيلة
التي يطلبها الله من عباده ..

فيأتيك الجواب : كيف تريد منا الوقوف أمام الله تعالى وتوجيه
الدعاء له مباشرة ، ونحن ننوء بأثقالنا .. اننا مهما فعلنا من حسنات فان
ذنوبنا ومعاصينا أكثر .. اننا نقصر في أداء حق الله تعالى بارتكاب
المعاصي ، ولهذا نستشفع اليه بهؤلاء الصالحين الأطهار ، عسى أن يتقبل
منا الدعاء !!

تماما كما قال أسلافهم من قبل حين طافوا بالكعبة عرايا :
« لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها » !!

وتقول : أنتم أشد عصيانا لله تعالى من ابليس ؟ ! أقصد عصى
ابليس ربه وتمرد على أمره .. فلما أحس بخطورة موقفه أتجه الى
الله تعالى مباشرة بالدعاء فقال : « **رب فأنظرني الى يوم يبعثون** » (١٠) ،
ولم يقل بجاه جبريل أو بحق ميكائيل .. ولهذا استجاب الله لدعائه
فقال : « **فانك من المنظرين** » (١١) .

(١٠) الحجر : ٣٦ ، وسورة ص : ٧٩

(١١) الحجر : ٢٧ ، وسورة ص : ٨٠

إذا قلت هذا .. فان انجواب سوف يأتيك سريعا : أفصح عن نفسك ، فأنت عدو لأولياء الله مبغض لأهله الصالحين !!

ويهم الجمع بالفتك بك .. ولا ينقذك من بين أيديهم الا تدخل رجل وقور بقوله : ياأخى ، دع الناس وعقيدتهم فهي بحمد الله سليمة .. انهم لا يسألون الا الله تعالى ، وان اتخذوا هذا السبيل أدبا مع الله واستصغارا لأنفسهم .. ألم تسمع الدعاء : « اللهم ارزقنا ايمانا كايمان العوام » .. دعوا الناس وشأنهم !!

فتفهم على الفور أن الرجل واحد من سدنة الأضرحة يدافع عن منصبه .. ولا تجد أمامك من حيلة الا أن تغادر المسجد آسفا حزينا ، حتى تنجو بنفسك ، واسانك يقول : لا حول ولا قوة الا بالله ..

* * *

● وحوار آخر صريح :

ترى الواحد منهم .. عاكفا على الضريح ، لاإذا به ، متوجها الى ساكنه بالدعاء والتذلل والخشوع .. فتريد ارشاده الى ما يصح عقيدته فتقول : خفف ياأخى من غلوائك .. فان ما تفعله هو الشرك الذى يآباه الله تعالى ، ألم يقل جل شأنه : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » (١٣) ؟

ألم يقل جل وعلا : « له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء » (١٣) ؟

فيلتفت اليك غاضبا .. ويصيح فى وجهك قائلا : فأين أنت من قوله تعالى : « ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١٤) ؟ !
أليس فى هذه الآية الدليل كل الدليل ، على أن الشفاعة حق ، وأن لأولئك الأواباء والصالحين جاها عند الله تعالى ؟

(١٣) الرعد : ١٤

(١٢) الجن : ١٨

(١٤) يونس : ٦٢

ثم يقول : نحن لا نشرك بالله ، بل نشهد أنه لا يخلق ولا يرزق ولا ينفذ ولا يضر الا الله وحده لا شريك له •• وأن محمدا ﷺ لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا — فضلا عن أولئك الأولياء والصالحين — ولكن أنا مذنب ، والصالحون لهم جاه عند الله ، وأنا أطلب من الله بهم ، ولا أطلب منهم !!

فتقول له : لقد كان المشركون — أيضا — يشهدون أن الله تعالى هو الخالق الرازق وحده لا شريك له •• وأنه لا يرزق الا هو ، ولا يحيى ولا يميت الا هو ، ولا يدبر الأمر الا هو •• وأن جميع السموات السبع ومن فيهن ، والأرضين ومن فيهن كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره ••

واقرا ان شئت قوله تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون » (١٥) •

وقوله جل شأنه : « قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون • سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون • قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم • سيقولون لله ، قل أفلا تتقون • قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجزي ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون • سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون » (١٦) •

لقد أقر المشركون بهذا كله ، ولكن أقرارهم لم يدخلهم فى التوحيد الذى دعا اليه الرسول ﷺ ، لأنهم جحدوا توحيد العبادة الذى تسمونه اليوم « الاعتقاد » •

لقد كان المشركون يتعبدون • ويحجون ، ويتصدقون ، ويذكرون الله كثيرا •• ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله تعالى — مثل الملائكة وعيسى ومريم وغيرهم من الصالحين —

ويقولون : نريد منهم ان تقرب الى الله ونريد شفاعتهم عنده .. فبعث الله اليهم محمدا ﷺ : ليجدد لهم دين ابيهم ابراهيم عليه السلام ، ويخبرهم ان هذا التقرب والاعتقاد محض حق لله ، لا يصلح منه شيء ، لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل فضلا عن غيرهما ..

ولقد قاتلهم الرسول ﷺ على هذا الشرك ، ودعاهم الى اخلاص العبادة لله وحده ، وليكون الدعاء كله لله ، والذبح كله لله ، والنذر كله لله ، والاستعانة كلها بالله .. وجميع أنواع العبادة كلها له تعالى ..

فاقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الاسلام .. وقصدهم الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء يريدون شفاعتهم والتقرب الى الله بذلك هو الذي أحل دماءهم وأموالهم ..

فيقول لك : هؤلاء الآيات - التي ذكرت - نزلت فيمن يعبد الأصنام .. فكيف تجعل الصالحين مثل الأصنام .. أم كيف تجعل الأنبياء أصناما ؟ !

وتقول : لقد كان من الكفار من يدعو الأصنام .. ومنهم من كان يدعو الأولياء الذين قال الله فيهم : « أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه » (١٧) . ويدعون عيسى ابن مريم وأمه عليهما السلام .. وقد قال تعالى : « ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة ، كنا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون . قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم نصرا ولا نفعا ، والله هو السميع العليم » (١٨) .

ويقول تعالى : « ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة هؤلاء أيكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانه أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون » (١٩) .

(١٨) المائدة : ٧٥ ، ٧٦

(١٧) الاسراء : ٥٧

(١٩) سبأ : ٤٠ ، ٤١

ويقول جل شأنه : « وأذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله ، قال سبحانه ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، ان كنت قلتة فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، انك أنت علام الغيوب » (٢٠) .

أعرفت بعد هذا .. أن الله تعالى قد كفر من قصد الأصنام ، وكفر أيضا من قصد الصالحين .. كما قاتلهم رسول الله ﷺ ؟ . فيقول لك : الكفار يريدون منهم ، وأنا أشهد أن الله تعالى هو النافع الضار المدبر ، لا أريد الا منه ، وأعرف أن الصالحين ليس لهم من الأمر شىء ، ولكنى أقصدهم وأرجو من الله شفاعتهم .. وتقول له : ان هذا هو نفس قول الكفار .. اقرأ قوله تعالى : « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » (٢١) .

وقوله جل شأنه : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » (٢٢) .. فما الفرق بين ما نقوله الآن ، وبين ما قناوه ونعاه عليهم القرآن ؟ ! فيقول لك : أنا لا أعبد الا الله ، وهذا الالتجاء اليهم ودعاؤهم ليس بعبادة ..

ثم يدور بينكما الحوار التالى .. تقول له : أتقر بأن الله افترض عليك اخلاص العبادة له ؟ فيجيب بالايجاب .. وتقول : لقد قال تعالى : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية ، انه لا يحب المعتدين » (٢٣) .. فهل علمت هذا عبادة لاله ؟ .. فيقول : نعم !! ، والدعاء مخ العبادة ..

وتقول : اذا أقررت أنه عبادة ، ثم دعوت الله ليلا ونهارا ، خوفا وطمعا .. ثم دعوت فى تلك الحاجة نبيا أو غيره ، هل أشركت فى عبادة الله غيره ؟ .. فلا يسعه الا اقرارك على ما تقول ..

(٢١) الزمر : ٣
(٢٢) الأعراف : ٥٥

(٢٠) المائدة : ١١٦
(٢٢) يونس : ١٨

وتقول : فاذا عملت بقول الله تعالى : « فصل لربك وانحر » (٢٤) ، وأطعت الله ونحرت له .. هل هذا عبادة ؟ .. فيترك على ما تذهب اليه .. وتقول : فان نحرت لمخلوق ، أو نبي أو ولي ، أو غيرهما .. هل أشركت في هذه العبادة غير الله ؟ .. فيجيب بالايجاب .. وتقول : المشركون الذين نزل فيهم القرآن ، هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك ؟ .. فلا يسعه الا أن يوافقك على ذلك ..

وتريد أن تنتهي الحوار معه بقولك : وهل كانت عبادتهم اياهم الا في الدعاء والذبح والالتجاء ونحو ذلك ؟ .. والا فهم مقرون أنهم عبيده وتحت قهره تعالى .. وأن الله وحده هو الذي يدبر الأمر ، وكنهم دعوهم والتجأوا اليهم للجاء والشفاعة .. ولكنه يستأنف الحوار قائلاً : أنتكر شفاعه رسول الله ﷺ وتبرأ منها ؟ !

فتجيبه : لا أنكرها ولا أتبرأ منها .. بل هو ﷺ الشافع المشفع ، وأرجو شفاعته .. ولكن الشفاعه كلها لله تعالى كما قال جل شأنه : « قل لله الشفاعه جميعا » (٢٥) .. ولا تكون الا من بعد اذن الله كما قال تعالى : « من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه » (٢٦) .. ولا يشفع في أحد الا بعد أن يأذن الله فيه كما قال تعالى : « ولا يشفعون الا لمن ارتضى » (٢٧) .. وهو سبحانه لا يرضى الا التوحيد كما قال تعالى : « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه » (٢٨) .. فاذا كانت الشفاعه كلها لله تعالى ، ولا تكون الا من بعد اذنه ، ولا يشفع النبي ﷺ ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه ، ولا يأذن الله تعالى الا لأهل التوحيد .. تبين لك أن الشفاعه كلها لله .. وأنا أطلبها منه فأقول : اللهم لا تحرمني شفاعته ، اللهم شفعه في ، وأمثال ذلك ..

(٢٥) الزمر : ٤٤

(٢٧) الأنبياء : ٢٨

(٢٤) الكوثر : ٢

(٢٦) البقرة : ٢٥٥

(٢٨) آل عمران : ٨٥

فيقول : النبي ﷺ أعطى الشفاعة ، وأنا أطلبها منه مما أعطاه الله . . .
وتقول : ان الله أعطاه الشفاعة ونهاك عن هذا . . . فقال :
« فلا تدعوا مع الله أحدا » (٢٩) . . . فإذا كنت تدعو الله أن يشفع نبيه
فيك فأطعه في قوله : « فلا تدعوا مع الله أحدا » ، وأيضا فإن الشفاعة
أعطيتها غير النبي ﷺ ، فصح أن الملائكة يشفعون ، والأفراد يشفعون ،
والأولياء يشفعون . . . أتقول : ان الله أعطاهم الشفاعة فأطلبها منهم ؟ . . .
فان قلت هذا ، رجعت الى التعبد للصالحين التي ذكرها الله في كتابه ،
وان قلت لا ، بطل قولك : أعطاه الله الشفاعة وأنا أطلبها منه مما
أعطاه الله . . .

فيقول لك : أنا لا أشرك بالله شيئا ، حاشا وكلا . . . ولكن الاتجاء
الى الصالحين ليس بشرك !!

وتقول : اذا كنت تقر أن الله حرم الشرك أعظم من تحريم الزنا ،
وتقر أن الله لا يغفره . . . فما هذا الأمر الذي حرمه الله وذكر أنه
لا يغفره ؟

فيقول : الشرك عبادة الأصنام ، ونحن لا نعبد الأصنام !!

وتقول : ما معنى عبادة الأصنام ؟ . . . أنتنن أنهم يعتقدون أن تلك
الأخشاب والأحجار ترزق وتدبر أمر من دعاها ؟ . . . فهذا يكذبه القرآن . . .
فيقول : لعله أن يكون من قصد خشبة أو حجرا أو بنية على قبر
أو غيره يدعون ذلك ويذبحون له ، ويقولون انه يقربنا الى الله زلفى ،
ويدفع الله عنا ببركته أو يعطينا ببركته !!

فتقول : صدقت . . . وهذا هو فعلكم عند الأحجار والأبنية التي
على القبور وغيرها . . . فان كان مرادك من قولك « ان الشرك عبادة
الأصنام » أن الشرك مخصوص بهذا ، وأن الاعتماد على الصالحين
ودعائهم لا يدخل في ذلك ، فهذا يرد ما ذكره الله في كتابه من كفر
من تعلق على الملائكة أو عيسى عليه السلام أو الصالحين . . .

فيعود الى قوله : ألم يقل الله تعالى : « ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ؟ ..

فتقول له : هذا هو الحق ، ولكن لا يعبدون ، ونحن لم نذكر الا عبادتهم مع الله وشركهم معه .. والا فالواجب عليك حبهم واتباعهم والاقرار بكرامتهم .. ولا يحجد كرامات الأولياء الا أهل البدع والضلال .. ودين الله وسط بين طرفين ، وهدى بين ضاللتين ، وحق بين باطلين ..

واعلم يا أخى : أن التوحيد الذى يأمرنا الله به ، هو افراده وحده بالعبادة .. وأن لا تكون العبادة والطاعة الا لله وحده ، خالصة له ، ولا شريك لأحد معه فيها .. ولا بد أن يكون هذا التوحيد بالقلب واللسان والعمل .. فان اختلف شيء من هذا لم يكن الرجل مسلما ، فان من عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند ، كفرعون وابليس وأمثالهما ، أعاذنا الله من ذلك ..

ولقد وعدنا تعالى .. أنه سيفصل يوم القيامة بين أولئكم الذين اتخذوا الأولياء من دونه ، وبين انذين أفردوه وحده بالعبادة والطاعة .. وسيحكم تعالى فيما كانوا فيه يختلفون فيجزي كل بعمله وعقيدته .. نسأل الله أن يهدينا واياك الى سواء السبيل^(٣٠) ..

* * *

ويصف لنا فضيلة الشيخ محمد الغزالي هذه الحالة المفزعة التى تردى المسلمون اليها فيقول : « ومما وقع فيه العوام : الاتجاه الى قبور بعض الصالحين ، يطلبون من أصحابها ما لا يطلب الا من الله عز وجل ..

« لعل سر هذا الشرود .. أن الناس يرون فى أنفسهم ضعة تقصر بهم عن مناجاة الله مباشرة .. فهم يذهبون بحاجاتهم الى قوم أركى حالاً ليرفعوا عنهم ما لا يمكنهم رفعه بأفئدتهم وألسنتهم !!

(٣٠) عن كتاب « كشف الشبهات فى التوحيد » ، نلامام محمد بن

عبد الوهاب ، بتصريف كثير ..

« وهذه العلة .. هي سر الانصراف عن الله الحق الى عبيده الذين يسمعون ، والذين لا يسمعون .. بل الذين يعقلون والذين لا يعقلون !!

« وكم من علة ظاهرها زيادة توقير الله بانتهاك حرمات الله !!
ألا ترى أن المشركين كانوا يطوفون بالكعبة عرايا ، نساء ورجالا ، محتجين بأنه لا ينبغي أن يطوفوا في ثياب عسوا الله فيها !!

« فالمتخرج من الاتصال بالله دون وساطة .. كان جريمة الوثنية القديمة التي صور القرآن الكريم اعتذارها عن شركها بقوله :
« ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » (٣١) .

« وهذا الاعتذار نفسه .. هو ما يردده سدنة الجاهلية الحديثة في دفاعهم عن قصاد القبور طلبا للشفاء والفلح ، والتماسا للنجدة والعون !!
« وبدهي أن لا مكان في الاسلام لوسطاء بين الله وخلقه ..
فان كل مسلم مكلف ، أن يقف بين يدي الله مهما كانت حالته ، وهو موثق بأن دعاءه ينتهي الى سمع الرحمن من غير تدخل بشر آخر آياً كان شأنه ..

« والعبادة الأولى في الاسلام — وهي الصلاة المقسمة على أجزاء النهار والليل — قوامها هذه الحقيقة المؤكدة التي لا ريب فيها ..

« فكيف يوجب الله على عباده أن يترددوا على ساحته ، ويسألوه — حتماً — الهداية الى الصراط المستقيم ، ويسجدوا بين يديه ضارعين طالبين .. وكيف يعتبر التخلف عن هذه الصلوات كفراً به أو اهداراً لحقه ، ثم يسوغ لأحد من الناس بعد أن يقول : أنا محتاج لوسيط يحمل عنى الى الله ما أريد ؟ !

« ان هذا لا تفسير له الا الرغبة في الشرك الخفى أو الجلى !!
« وتسال طالب الوساطة : من تختار يكلم لك الله ؟ .. فلو أنه

اختار من الأحياء رجلاً يتوسم فيه الصلاح ليدعو الله له ، لئان الخطب
•• بيد أن العجيب قصده إلى الأموات الذين انتقطت بالدنيا صلاتهم :
وأفضوا إلى ما قدموا من عمل !! ولا شعور لهم بهذا المقصد الجهول
الذي جاء •• لم ؟ •• ليطلب منهم أو يستشفع بهم !!
ثم يقول فضيلته : « ان التفكير الاسلامي •• سقط في هذه
الوهدة الشائنة من أمد بعيد ، فدارت حول الولاية والأولياء خرافات
شتى ، وجاءت على الناس أيام ظنوا فيها أن مقاليد الكون أصبحت
بأيدي نفر من هؤلاء الهلكى ، يصرفونها - بدلالهم على الله -
كما يشاءون !!

« وزاد الطين بلة •• أن أولئك الأولياء المقصودين تجاوزت أقدارهم
قوانين الأسباب والمسببات المعروفة •• فاضطربت - تبعاً لذلك - نظرة
المسلمين إلى سنن الله الكونية ، وحسبوا تلين لكل من واطب على
شئ من العبادة !!

« وانتهى أمر هذه الأمة المنكودة •• إلى أن فقدت مكانتها العالية
في دنيا تعتمد على المعرفة الحقة بأسرار الطبيعة وقوانين الحياة ••
بعد أن فقدت أيضاً منزلتها عند الله مذ أشركت معه من لا يملك لنفسه
أو لغيره ضراً ولا نفعاً !!

« أنحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء ،
انا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً » (٣٢) •

ثم يقول فضيلته : « لماذا يكون من الدين الاعتراف بحق
« أناس ما » فى التوسط بين الله وخالقه ؟ !

« ولماذا يكون من الدين الاعتراف بقدرة هؤلاء على اختراق
نواميس الطبيعة وصنع الخوارق الباهرة ؟ !

« ولماذا يعد من شعب الايمان بالله ورسوله واليوم الآخر ،
أن نقر بحقوق هذه الولايات وطاقتها الواسعة فى تصريف الشئون
وبعث الشجون ؟ !

« الحق أن هذا كله تخليط سمج .. وأن اللجاجة فيه نزعة جاهلية .. ولن تعدم دعيا فى الاسلام يخاصم عن هذه الأوهام ، ويحاول تعكير التوحيد الخالص - وهو روح الاسلام ومادته - بلغظ لا عقل فيه ولا اخلاص ، زاعما أن اتخاذ الوسطاء لا ينافى تعاليم الدين .. »
« ولا غرابة .. فان النصرارى يرون التثليث توحيدا !! .. »
« وكان الانسان أكثر شيء جدلا » (٢٣) ..

تحدث هذه الأمور وغيرها .. فيراها المسلم وغير المسلم .. ويسجلها المستشرقون ليرموا بها المسلمين جميعا ، ويحملوا الاسلام أوزارها .. فلا غرق عندهم بين صوفى وغير صوفى ، فالكل عندهم مسلمون .. والهدف الذى يهدفون اليه هو تشويه الاسلام والكيد للمسلمين .. لذا نراهم يرمون المسلمين جميعا بالحماقة والغباء وعبادة الأساطير !!

واقصد أساءت هذه الأفكار الدخيلة على الاسلام اليه بأكثر مما أساء أعداؤه !!

يقول المستشرق الانجليزى « لين » : « يزور المصريون الأضرحة معتقدين أنهم سينزلون عليهم البركات ، واما بقصد التماس البرء من مرض ، أو طلب النسل .. ويعتبر المسلمون أولياءهم المتوفين شفعاء لهم عند الله ، ويقدمون لهم النذور » !!

ويقول : « وقد جرت العادة .. أن يقوم المسلمون كما كان يفعل اليهود بتجديد بناء قبور أوليائهم وتبييضها وزخرفتها ، وتغطية التركيبة أو التابوت أحيانا بغطاء جديد .. وأكثر هؤلاء يفعلون ذلك رياء كما كان يفعله اليهود » !! (٢٤)

ويقول جولدزيهر : « بقى كثير من عناصر الديانات السابقة

(٢٣) ليس من السلام ، مرجع سابق ، ص ١٦٤ - ١٦٦ ، والآية من سورة الكهف : ٥٤

(٢٤) المصريون المحدثون ، للمستشرق لين ، ص ١٦٧ وما بعدها ..

للاسلام ، واستأنفت حياتها في المظاهر العديدة الخاصة بتقديس الأولياء .. وفي الحق ليس من شيء أشد خروجاً على السنة القديمة من هذا التقديس المبتدع المفسد لجوهر الاسلام والماسخ لحقيقته ، وان السنن الصادق الحريص على اتباع السنة لا بد أن يعده من قبيل الشرك الذي يستثير كراهيته واشمئزازه !!

وعندما يتحدث عن تقديس العامة للأولياء ، نراه يقول : « وأضرحة الأولياء والأماكن المقدسة الأخرى .. هي موضع عبادتهم التي يرتبط بها أحياناً ما يظهره العامة من تقديس وثني غليظ لبعض الآثار والمخلفات ، بل ان العامة تخص الأضرحة ذاتها بما لا يقل عن العبادة المحضة » !! ويتحدث عن الولي المحلى ، فيقول : « ويخشى الواحد منهم أن يحنث في يمين حلف فيه باسم الولي أكثر مما يحمر خجلاً عندما يحلف بالله باطلاً » !! (٣٥) .

ويقول رونلدسن : « بالرغم من التوحيد المصرح به في القرآن .. فان الأمم الاسلامية لا زالت تحتفظ بكثير من العادات الوثنية .. فان من أهم الصفات في الحياة الدينية للعوام في جميع الأمم الاسلامية هو تقديسهم لقبور الصالحين .. وفي هاتين القضيتين ساير العلماء المحدثون اندفاع الرأي العام ، وقد أصبح لكل قوم أئمة محلون يزورون قبورهم وآثارهم ، فيفرح ذلك الامام ويشفع لهم وينجيهم من الذقر والمرض » !! (٣٦)

ويقول جوتيه : « وتقديس الأولياء الى درجة قد تقرب من العبادة الذي نراه انتشر بعد في جميع الأقطار الاسلامية ، يشير في الحقيقة الى رد فعل من الأمم والشعوب التي فتحتها الاسلام ضد العقلية الاسلامية التي لا تسلّم بوسطاء أو شفعاء لدى الله ، انه لم يتصد اجلال الأولياء والرسول الى ما يقرب من العبادة - أي ضد هذا التغيير الخطير في العقلية الاسلامية الأولى - الا الطائفة الوهابية » !! (٣٧)

(٣٥) العقيدة والشريعة ، لجولدزيهر ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٤

(٣٦) عقيدة الشيعة ، لرونلدسن ، ص ٢٦٦

(٣٧) المدخل ، لجوتيه ، ص ١٥٨

أرأيت كيف أساءت هذه الأفكار الدخيلة على الاسلام اليه بأكثر
مما يسيء اليه أعداؤه ؟ !
فما الذى قاد الناس الى هذه الأفكار المنكرة ؟ ؟
ان الله تعالى يقول : « وَأَنْ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ
أُحْدًا » (٣٨) .

ويحذرنا الرسول ﷺ من اقامة المساجد فوق القبور ، وينهى عن
ذاك ويلعن فاعله ..
ولكن الناس أعرضوا عن أمر ربهم ، وعصوا سنة نبيهم ..
فأصبح هذا حالهم !!
ولو سلمنا - جدلا - للصوفية أن اقامة هذه المساجد فوق القبور
ليس مظهرا من مظاهر الشرك - بالرغم من تحذير الرسول ﷺ ونهيه
عنه ولعن فاعله - فهل نستطيع التسليم بأن هذا الأمر ليس من
الأبواب التى تؤدى الى الشرك .. والعياذ بالله ؟ !

* * *

لم تكن عقيدة « الوسيلة » - بمفهومها لدى الصوفية - احدى
العقائد التى قام عليها الاسلام ، فكيف أدخلت هذه العقيدة على
الفكر الاسلامى ؟ !

يحدثنا المرحوم الدكتور محمد البهى عن أصل هذه العقيدة
وادخالها على الفكر الاسلامى فيقول :

« نشأت عقيدة « الوسيلة » فى الفكر الاسلامى من اعتقاد
الشيعة بعصمة الامام ، والقول بالتقية والوسيلة ..

« والوسيلة - عند الشيعة - هى اتخاذ الامام واسطة عن طريق
تلقى تعاليمه واتباع رأيه فى الوصول الى الآخرة .. وهى القربى من
الله سبحانه تعالى ..

« وقد جاءت الوسيلة - على هذا النحو - الى الجماعة الاسلامية
عن طريق مدرسة الأفلاطونية الحديثة .. فقد حددت هذه المدرسة

العالم الرفيع فى الوجود الرفيع فى القيمة - من أجل كونه أصلا
لما عداه ، ومشرفا ومدبرا لغيره وراعيا لتوجيهه - بثلاثة من الموجودات
هى : الأول ، والعقل ، والنفس الكلية ..

« ولم تقتصر هذه العقيدة على غلاة الشيعة .. لأننا نراها توجد
عند الصوفية المتأخرة .. ويلعب الدور الأول فيها : « المرید » -
أو « صاحب الفراسة » - كما توجد عند عوام الفرق الأخرى تقليدا
والفأ وعادة .. ويمثل هذا الدور فى نظرهم « الأولياء » - وهم أصحاب
الكرامات ..

« والاسلام - فى تحديده للأولياء - لم يعرف ذلك التحديد
العرفى .. فالولى ثم يزل فى القرآن الكريم هو المتبع لكتاب الله
ورساته ..

« وأولياء الله - الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون - هم
أصحاب الايمان القوى .. بحيث لا يزعجهم فى حياتهم نقص فى
الأموال والأنفس والثمرات .. ولا ترعجهم هزيمة ولا طغيان صاحب
سلطان ..

« لهذا يحارب الفكر الاسلامى السليم الصوفية المتأخرة لقولها
بالاتحاد والحلول .. ويرفع التكاليف بناء على فهمها الخاص فى القرآن
من أن له ظاهرا وباطنا ، كما يحارب وجوب شد الرحال الى قبور
الصالحين أو الأولياء واتخاذهم وسائط بين الله تعالى وعباده » (٣٩) .

* * *

● ما هو التوسل ، وما هى الوسيلة ؟

لقد غاب المعنى الشرعى واللغوى للتوسل - وهو التقرب الى
الله تعالى بالعمل الصالح - عن أولئكم الذين اتخذوا الأولياء والصالحين
وسطاء وشفعاء .. يتجهون بهم الى الله تعالى ، وفى ظنهم أنهم بفعلهم
هذا يمثلون لتوجيه القرآن الكريم فى قوله تعالى : « وابتغوا اليه

(٣٩) الفكر السلامى فى تطوره ، للدكتور محمد البهى ، نشر مكتبة
وهبة ، الطبعة الأولى ، ص ٧٧ ، ٧٨ بتصرف يسير ..

الوسيلة » .. وظنوا أن الوسيلة المطلوبة هي في التوجه الى المقبورين بالدعاء والاستغاثة وطالب العون والنصرة !!

وسبق أن قلنا : ان التوسل الى الله تعالى يكون بعمل صالح قام به الداعي ، وهو نوع من التقرب الى الله تعالى .. وهو أمر جائز ومشروع ومرغوب فيه .. بل منه الواجب الذي لا يتم الايمان الا به ..

يقول الله تعالى في وصف أولى الألباب : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا عذاب النار . ربنا انك من تدخل النار فقد أجزيت ، وما للظالمين من أنصار . ربنا اننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار » (٤٠) .

أى هم الذين يذكرون الله قياما في صلاتهم .. وقعودا في مجالسهم .. ومضطجعين على جنوبهم .. فلا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم : بألسنتهم ، وسرائرهم ، وضمايرهم .. في الصلاة ، وفي غير الصلاة ، وفي قراءة القرآن ..

هم الذين يتفكرون في الأمور الدالة على عظمة الخالق ، ويعتبرون بصنعة صانع ذلك الخلق ، وأنه ليس كمثل شيء .. قائلين : انك يارب لم تخلق هذا الخلق عبثاً ولا لعباً ، وانما خلقتهم لأمر عظيم .. فنزهك يارب عن أن تفعل شيئاً عبثاً .. فقنا ياربنا من عذاب الجحيم ، فان من أدخلته النار من عبادك فقد أهنته غاية الاهانة ، وليس للظالمين من ناصر ينصرهم أو ينقذهم من عذاب الله ..

ويقولون : ربنا اننا سمعنا داعياً يدعو الى الايمان — وهو الرسول ﷺ أو القرآن — فصدقنا بذلك ياربنا ، فاستر عنا خطايانا ، ولا تمنصنا بها يوم القيامة ، وامح بفضلك ورحمتك سيئات أعمالنا ، واقبضنا اليك ، واحشرنا في زمرة الأبرار الذين رضيت عنهم ..

ويقول جل شأنه في وصف المؤمنين : « انه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنة فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين » (٤١) .
أى أن أهل الايمان يقولون فى الدنيا : ربنا آمنة بك وبرسولك ، فاغفر لنا ذنوبنا ، وارحمنا ولا تعذبنا بعذابك ..
والمقصود .. أن هؤلاء وهؤلاء .. قد قدموا التوسل بالعمل الصالح - وهو الايمان - على طلب المغفرة والرحمة .. رجاء الاجابة .. وفى الحديث الشريف الذى يرويه عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - ما يدل على هذا المعنى .. حيث يقول : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت الى غار (٤٢) فدخلوه .. فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا : انه لا ينجيكم من هذه الصخرة الا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم ..

« قال رجل منهم : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران .. وكنت لا أعقب (٤٣) قبلهما أهلا ولا مالا .. فنأى بى طلب الشجر (٤٤) يوما فلم أرح عليهما حتى ناما .. فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أوقظهما وأن أعقب قبلهما أهلا أو مالا .. فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون (٤٥) عند قدمى .. فاستيقظا فثريا غبوقهما .. اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة .. فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج منه ..

« وقال الآخر : اللهم انه كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس الى - وفى رواية : « كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء » - فأردتها على نفسها فامتنعت منى ، حتى ألت بها سنة من السنين (٤٦) فجاءتنى

(٤١) المؤمنون : ١٠٩ . أى : لجأوا الى كهف فى الجبل .

(٤٢) الغبوق : شراب العشى ، والصبوح شراب الصبح ..

(٤٣) أى : بعد به طلب الشجر الذى ترعى فيه الماشية ..

(٤٤) أى : يصيحون من الجوع ..

(٤٥) أى : أصابها سنة متحطة مجدبة لا تنبت فيها الأرض ..

فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بيني وبين نفسيها ، ففعلت . .
حتى إذا قدرت عليها — وفي رواية : « فلما تعدت بين رجلها » —
قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم الا بحقه (٤٧) . . فانصرفت عنها وهي
أحب الناس الى وتركت الذهب الذي أعطيتها . . اللهم ان كنت فعلت
ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه . . فانفرجت الصخرة غير أنهم
لا يستطيعون الخروج منها . .

« وقال الثالث : اللهم انى استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير
رجل واحد ترك الذى له وذهب . . فثمرت أجره (٤٨) حتى كثرت منه
الأموال ، فجاءنى بعد حين وقال : يا عبد الله ، أد الى أجرى . فقلت له :
كل ما ترى من أجرك من الابل والبقر والغنم والرقيق . فقال :
يا عبد الله ، لا تستهزىء بى . . فقلت : لا أستهزىء بك ، فأخذه كله
فاسنأقه فلم يترك منه شيئاً . . اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك
فافرج عنا ما نحن فيه . . فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون » (٤٩) .

هؤلاء نفر الثلاثة . . لم يتوسلوا الى الله تعالى بنبى أو ولى ،
ولم يستشفعوا بميت أو حي . . انما توسلوا بصالح أعمالهم . .
والرسول ﷺ . . لم يقص علينا نبأ أولئك النفر لنقتسامر بحديثهم
ونسلى أنفسنا برواية سيرتهم . . انما أراد تعليمنا أن التوسل الى
الله تعالى لا يكون الا بالعمل الصالح .
والصحابه رضوان الله عليهم . . فهموا الدرس ووعوه تماما . .
فلم يتوسلوا الى الله تعالى الا بالأعمال الصالحة . . فهل نفهم نحن
أيضا الدرس ونعنيه ؟ ؟

● كما يجوز أن يكون التوسل بطلب الدعاء من رجل صالح يدعو له
. . وهو نوع من الاستشفاع بأحد الأحياء فيما يطلبه العبد من ربه . .
وهو جائز اتفاقاً . .

(٤٧) كناية عن فض البكرة ، وحقه هو الترويح المشروع .

(٤٨) أى : نماه له بالاتجار فيه .

(٤٩) الحديث متفق عليه . .

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه — فيما رواه أنس بن مالك — يستسقى بالعباس بن عبد المطلب — رضى الله عنه — اذا قحطوا .. ويقول : « اللهم انا كنا نتوسل اليك بنبينا ﷺ ، فتسقينا .. واننا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا » ..

والعباس رضى الله عنه قائم بينهم يتوسل معهم .. فيسقيهم الله ..

ويروى : أنه بعد أن فرغ عمر رضى الله عنه قام العباس وقال : « اللهم انه لم ينزل بلاء من السماء الا بذنب ، ولم يكشف الا بتوبة .. قد توجه بى القوم اليك لمكانى من نبيك ﷺ ، وهذه أيدينا اليك بالذنوب ، ونواصينا بالتوبة ، وأنت الراعى لا تهمل الضالة ، ولا تدع الكسير بدار مضيعة ، فقد ضرع الصغير ورق الكبير وارتفعت الأصوات بالشكوى ، وأنت تعلم السر وأخفى .. اللهم فاعثهم بغيثك قبل أن يقتطوا فيهلكوا ، فانه لا يياس من روح الله الا القوم الكافرون » ..

قال : فما تم كلامه حتى ارتفعت السماء مثل الجبال ..

والمقصود : استحباب الاستشفاع بأهل الخير والصلاح ، وأهل بيت النبوة — ماداموا أحياء ويدعون مع الداعين — ولو كان التوسل بالموتى جائزا ، لما ترك عمر رضى الله عنه التوسل بالرسول ﷺ بعد انتقاله الى الرفيق الأعلى ، فى حين أنه كان يتوسل به عندما كان حيا بينهم .. فلماذا يدع عمر قبر الرسول ويلجأ الى العباس متوسلا به اذا كان التوسل بالموتى جائزا ؟ !

ولا شك أن رسول الله ﷺ .. أعلى مقاما وأرفع منزلة من جميع الأنبياء والأولياء والصالحين .. فاذا جاز لعمر رضى الله عنه ترك الدعاء عند قبره ﷺ والتوسل به ، فان ترك الدعاء والتوسل بغيره من الأنبياء والصالحين أولى ..

ويروى أن معاوية بن أبى سفيان .. خرج يوما يستسقى ، فلما جلس على المنبر قال : أين يزيد بن الأسود الجرشى ؟ .. فقام يزيد ودعا معاوية فأجلسه أمامه ، ثم قال : « اللهم انا نستشفع اليك بخيرنا

وأفضلنا يزيد بن الأسود .. يابيزيد ، ارفع يديك « .. فرفع يزيد يديه ودعا الله تعالى .. فثارت في الغرب سحابة مثل الترس ، وهب لها ريح فسقوا حتى كادوا لا يبلغون منازلهم !!

فلماذا لم يتوسل معاوية بالرسول ﷺ أو بأبى بكر ، أو بعمر ، أو بعثمان ، أو بعلی رضی الله عنهم اذا كان التوسل بالموتى جائزا ؟ !
فى استسقاء عمر .. كان العباس بن عبد المطلب حيا ، وكان يستسقى معهم ..

وكان يزيد بن الأسود حيا حين استسقى به معاوية ، وكان يستسقى معهم ..

لقد كان التوسل الذى جرى عليه السلف الصالح .. أن يدعو المتوسل به ربه ويدعون معه .. فهو من هذه الناحية شفيع لهم ، وسائل لا مسئول .. اذ المسئول والمقصود هو الله تعالى وحده ..

فالتوسل اذن .. يراد به معنيان صحيحان باتفاق المسلمين ..
الأول : هو أصل الايمان والاسلام — وهو التوسل الى الله تعالى بالايمان بالرسول ﷺ وبطاعته ، والثانى : هو التوسل بدعاء الرسول ﷺ وشفاعته .. وهما جائزان باجماع المسلمين ..

● أما المعنى الثالث للتوسل — الذى جرى عليه الناس فى الأزمنة المتأخرة — وهو التوسل الى الله تعالى بالاقسام عليه بأحد من خلقه .. فهو ممنوع عند الجمهور .. لأنه لم يقع من الصحابة رضوان الله عليهم .. لا فى حياة الرسول ﷺ ، ولا بعد موته .. ولم يثبت فى دعاء من الأدعية الصحيحة ..

يقول ابن تيمية : « .. ويراد بالتوسل معنى ثالث لم ترد به سنة ، وهو الاقسام على الله تعالى بذات الرسول ﷺ والمسؤال بذاته .. فهذا هو الذى لم تكن الصحابة تفعله لا فى الاستسقاء ولا فى غيره .. لا فى حياته — ﷺ — ولا بعد مماته .. لا عند قبره ولا غير قبره .. ولا يعرف هذا فى شىء من الأدعية المشهورة بينهم » (٥٠) ..

(٥٠) قاعدة جليظة فى التوسل والوسيلة ، لابن تيمية ، ط المنار ،

فهذا الاقسام على الله تعالى بذات الرسول ﷺ .. أو بغيره من المخلوقات ، لا يجوز شرعا لقول الرسول ﷺ : « ألا ان الله ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم ، من كان حالفا فليحلف بالله ، أو ليصمت » (٥١) ..

فإذا كان هذا فى القسم بغير الله على أحد من المخلوقين ، فكيف بالقسم على الله تعالى بأحد مخلوقاته ؟ !

هل يتفق هذا مع الأدب مع الله سبحانه حيث يؤكد المقسم طلبه بالقسم ؟ !

وهل يتناسب مع ما ينبغى من الخضوع التام لله جل شأنه ، والتذلل والافتقار له فى كل حين .. فضلا عن حال الرجاء ؟ !

● ويقول الدكتور يوسف القرضاوى (٥٢) : « من الشرك الأكبر نوع خفى .. يخفى على كثير من الناس .. ومنه دعاء الموتى والمقبورين من أصحاب الأضرحة والمقامات ، والاستعانة بهم وطلب قضاء الحوائج منهم من شفاء المرضى ، وتفريج الكربات ، واغاثة المهوف ، والنصر على العدو - مما لا يقدر عليه الا الله - واعتقاداتهم بأنهم يضررون وينفعون .. وهذا أصل الشرك العام كما قال ابن القيم ..

« وسبب خفاء هذا الشرك أمران ، الأمر الأول : أن الناس لا يسمون هذا الدعاء والاستعانة والاستغاثة بأصحاب القبور عبادة ، ويظنون أن العبادة انما تنحصر فى الركوع والسجود والصلاة والصيام ونحوها .

« والأمر الثانى : أنهم يقولون : نحن لا نعتقد أن هؤلاء الأموات الذين ندعوهم ونستغيث بهم آلهة أو أرباب لنا .. بل نعتقد أنهم مخلوقون مثلنا ، ولكنهم وسائط بيننا وبين الله وشفعاء لنا عنده ..

« وهذا من جهلهم بالله جل جلاله .. فقد حسبوه مثل الماووك الجبارين والحكام المستبدين .. لا يستطيع الوصول اليهم الا بوسطاء وشفعاء .. وهو نفس الوهم الذى سقط فيه المشركون قديما حين قالوا

(٥١) رواه البخارى .

(٥٢) فى كتابه : « حقيقة التوحيد » ، مرجع سابق ، ص ٤١٠ - ٤٢

عن آلهتهم وأصنامهم : « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » (٥٣) .
« يقول تعالى : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم
ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » (٥٤) .

« ولم يعتقدوا يوما أن آلهتهم وأصنامهم تذاق أو ترزق ، أو تحيي
أو تميت . . كما قال تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض
ليقولن خلقهن العزيز العليم » (٥٥) .

« وقوله تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك
السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن
يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، غفل أفلا نتقون » (٥٦) .

« ومع هذا الاعتقاد فى الله تعالى أنه خالق السموات والأرض ،
وأنة الرزاق المدبر ، المحيي الميت . . والاعتقاد فى الأصنام أنها مجرد
وسائط وشفعاء لهم عند الله . . مع هذا كله رماهم القرآن بالشرك
وسماهم المشركين ، وأمر بقتالهم حتى يتوبوا من الشرك ويقولوا :
« لا اله الا الله » . . فمن قالها فقد عصم دمه وماله الا بحق الاسلام . .
« ان الله تعالى غنى عن الوسائط والشفعاء . . وهو أقرب الى
عبده من حبل الوريد ، كما قال تعالى : « واذا سألك عبادى عنى فانى
قريب » (٥٧) .

« وقال : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم » (٥٨) .

« وبابه تعالى مفتوح لكل من أراد الدخول . . ليس عليه حاجب
ولا بواب » ا ه .

* * *

غير أن البعض . . يتعللون لجواز هذا النوع من التوسل بحديث
عثمان بن حنيف — رضى الله عنه — الذى أخرجه أحمد والنسائى

(٥٤) يونس : ١٨

(٥٦) يونس : ٣١

(٥٨) غافر : ٦٠

(٥٣) الزمر : ٣

(٥٥) الزخرف : ٩

(٥٧) البقرة : ١٨٦

وابن ماجه : « أن رجلا ضريرا أتى النبي ﷺ فقال : ادع الله أن يعافيني .. فقال ﷺ : « ان شئت دعوت ، وان شئت صبرت فهو خير لك » .. قال : فداعه .. فأمره ﷺ أن يتوضأ فيحسن الوضوء ، ثم يصلى ركعتين ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم انى أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد : انى قد توجهت بك الى ربي فى حاجتى هذه لتقضى ، اللهم فشفعه فى » .. وزاد الحاكم : « فدعا بهذا الدعاء فقام وقد أبصر » ..

لهذا أفتى العز بن عبد السلام بمنعه فى غير النبي ﷺ ، ويعلق عليه الشوكانى فى « تحفة الذاكرين » بقوله : « الحديث صحيح ، وصححه أيضا ابن خزيمة ، وفيه دليل على جواز التوسل برسول الله ﷺ الى الله عز وجل ، مع اعتقاد أن الفاعل هو الله تعالى ، وأنه المعطى المانع .. ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .. فقله فى الحديث : « أسألك وأتوجه اليك بنبيك ... الخ » .. سؤال بالذات وقسم » ..

هذا ما يقوله الشوكانى .. ولكن ابن تيمية وغيره من الحنابلة — يمنعونه مطلقاً .. ويقولون : ان « الباء » فى قوله : « أتوجه اليك بنبيك » للسببية لا للقسم .. والمعنى : أسألك وأتوجه اليك بسبب محمد ﷺ .. فهو من التوسل بمعنى الشفاعة ..

ونضيف : ان الواقعة انما حدثت فى حياة الرسول ﷺ .. وهو الذى أمره بهذا الدعاء .. ولم تحدث بعد انتقاله الى الرفيق الأعلى ، فهو من قبيل الاستشفاع به ﷺ ..

ويقول فضيلة الشيخ أمين محمود خطاب — رحمه الله : « التوسل المشروع بالاتفاق هو التوسل بالعمل الصالح ، وبالمعنى على أنه شفيح ، وسائل لا مستؤل .. بل المستؤل هو الله تعالى لأنه هو الضار النافع .. المعطى المانع ..

« وأما ما يقع من العوام وأشباههم مخالفا لذلك فغير مشروع .. ترى أحدهم اذا نزل به أمر خطير ، ترك دعاء الله تعالى ودعا غيره ..

فينادى بعض الأولياء كانسيد والدسوقى والسيدة زينب والشافعى
والرفاعى والبيومى ... الخ !!

« ومنه قول بعض العامة : « العارف لا يعرف والشكوى لأهل
البصيرة عيب » !!

« وقولهم : « سقت فلانا عليك يارب » !! ، و « توسلت إليك
بجاه الولى فلان أو بمقامه » !!

« فهذا عمل مذموم يجب البعد عنه ، وهو لا يبلغ حد الكفر ..
« أما اذا كان المتوسل يعتقد أنه لا يحصل المطلوب الا به ،
ولا يجيب الله دعاء العبد الا اذا طلب ذلك من المتوسل بهم : كان كفرا
والعياذ بالله ..

« قال الشوكانى فى « الدر النضيد » : « فان قلت ان هؤلاء
القبوريين يعتقدون أن الله تعالى هو الضر النافع ، والخير والشر بيده ،
وأنهم ان استعاثوا بالأموات تصدوا انجاز ما يطلبونه من الله ..
قلت : وهكذا كانت الجاهلية ، فانهم كانوا يعلمون أن الله هو الضر
النافع ، وانما عبدوا أصنامهم لتقربهم الى الله زلفى .. ومن زعم أنه
لم يقع منه الا مجرد التوسل ، وهو يعتقد من تعظيم ذلك الميت
ما لا يجوز اعتقاده فى أحد من المخلوقين ، ويتقرب الى الأموات
بالذبائح والنذور ، ويناديهم مستغيثا بهم عند الحاجة ، فهذا كاذب فى
دعواه أنه متوسل فقط » ا ه .

« وأما حديث : « توسلوا بجاهى فان جاهى عند الله عظيم » ..
فقد تعرض له ابن تيمية بروايات أخرى قال : « وروى بعض الجهال عن
النبي ﷺ أنه قال : « اذا سألتم الله فأسأله بجاهى فان جاهى عند
الله عظيم » .. وهذا الحديث كذب ليس فى شيء من كتب المسلمين
التي يعتمد عليها أهل الحديث .. مع أن جاهه ﷺ عند الله تعالى أعظم
من جاء جميع الأنبياء والمرسلين » ..

وقال : « وقد تقدم أن ما يذكره بعض العامة من قوله ﷺ :

« إذا كانت لكم حاجة فاسألوا الله بجاهي » .. حديث باطل لم يروه أحد من أهل العلم ، ولا هو فى شيء من كتب الحديث ..
وقال : « وأما ما يروى عن النبى ﷺ : « إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور ، فاستعينوا بأهل القبور » .. فهو حديث كذب مفترى على النبى ﷺ باجماع العارفين بحديثه ، ولم يروه أحد من العلماء ، ولا يوجد فى شيء من كتب الحديث المعتمدة » (٥٩) .

* * *

● ويقول البعض : صحيح أنه لم يثبت فى السنة ما يدل على استحباب التوسل بذوات الأنبياء والصالحين .. ولكن ما المانع منه إذا فعلناه على طريق الاباحة ، لأنه لم يأت نهى عنه ؟ ..
ويرد فضيلة الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى على هذه التهمة قائلا :

« هذه شبهة طالما سمعناها ممن يريد أن يتخذ موقفا وسطا بين الفريقين لكى يرضى كلا منهما ، وينجو من حملاتهما عليه .. والجواب : يجب أن لا نفسى فى هذا المقام معنى الوسيلة .. اذ هى التى يتوصل بها الى تحصيل المقصود ..

« ولا يخفى أن الذى يراد التوصل اليه ، اما أن يكون دينيا ، أو دنيويا ..

« وعلى الأول ، لا يمكن معرفة الوسيلة التى توصل الى الأمر الدينى الا من طريق شرعى ، فلو ادعى رجل أن توسله الى الله تعالى بآية من آياته الكونية العظيمة كالليل والنهار - مثلا - سبب لاستجابة الدعاء .. لرد عليه ذلك الا أن يأتى بدليل ..

« ولا يمكن أن يقال حينئذ باباحة هذا التوسل ، لأنه كلام ينقض بعضه بعضا .. اذ أنك تسميه توسلا ، وهذا لم يثبت شرعا ، وليس له طريق آخر فى اثباته ..

« وهذا بخلاف القسم الثاني من القسمين المذكورين فهو الدنيوى ، فان أسبابه يمكن أن تعرف بالعقل أو بالعلم أو بالتجربة ونحو ذلك •• مثل الرجل يتاجر ببيع الخمر ، فهذا سبب معروف للحصول على المال ، فهو وسيلة لتحقيق المقصود وهو المال •• ولكن هذه الوسيلة نهى الله عنها ، فلا يجوز اتباعها بخلاف ما لو تاجر بسبب لم يحرمه الله عز وجل ، فهو مباح ••

« أما السبب المدعى أنه يقرب الى الله ، وأنه أرجى فى قبول الدعاء ، فهذا سبب لا يعرف الا بطريق الشرع ، فحين يقال : بأن الشرع لم يرد بذلك ، لم تجز تسميته وسيلة حتى يمكن أن يقال انه مباح التوسل به ••

« وشئ ثان •• وهو أن التوسل — الذى سلمنا بعدم وروده — قد جاء فى الشرع ما يعنى عنه (٦٠) ••

« فما الذى يحمل المسلم على اختيار هذا التوسل الذى لم يرد ، والاعراض عن التوسل الذى ورد ؟ •• وقد اتفق العلماء على أن البدعة اذا صادمت سنة فهى بدعة ضلالة اتفاقا •• وهذا التوسل من هذا القبيل ، فلم يجز التوسل به ، ولو على طريق الاباحة دون الاستحباب !! » وأمر ثالث •• وهو أن التوسل بالذوات ، يشبهه توسل الناس ببعض المقربين الى الملوك والحكام ، والله تبارك وتعالى ليس كمثله شئ ، باعتراف المتوسلين بذلك ، فاذا توسل المسلم اليه تعالى بالأشخاص ، فقد شبهه عملا بأولئك الملوك والحكام •• وهذا غير جائز « (٦١) •

فالتوسل بغير أسماء الله تعالى وصفاته ، أو بغير العمل الصالح الذى يقوم به المتوسل ، أو التوسل بغير دعاء رجل صالح يدعو له •• غير جائز ولا مشروع ، لأنه لم يرد فيه دليل فتقوم به الحجة ••

(٦٠) وهو التوسل باسم من أسماء الله تعالى ، أو بصفة من صفاته ، والتوسل بعمل صالح قام به الداعى ، أو بدعاء رجل صالح يدعو للمتوسل ••

(٦١) انظر : التوسل : « أنواعه وأحكامه » ، للشيوخ ناصر الدين الألبانى ، ط بيروت ، ١٣٩٧ هـ ، ص ١٣٦ وما بعدها •

وقد أنكره العلماء المحققون في العصور الإسلامية المتعاقبة .. وان كان الامام أحمد يجيز التوسل بالرسول ﷺ وحده فقط ، كما يجيز الشوكاني التوسل به وبغيره من الأنبياء والصالحين .. فان أبا حنيفة يمنع ذلك .. فقد جاء في « الدر المختار » (٦٢) ما نصه : عن أبي حنيفة : لا ينبغي لأحد أن يدعو الله الا به ، والدعاء المأذون فيه ، المأمور به ما استفيد من قوله تعالى : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » (٦٣) .

ويقول الزبيدي في « شرح الاحياء » (٦٤) : « كره أبو حنيفة وصاحبه أن يقول الرجل : أسألك بحق فلان ، أو بحق أنبيائك ورسلك ، أو بحق البيت الحرام والمشعر الحرام ، ونحو ذلك .. اذ ليس لأحد على الله حق .. وكذلك كره أبو حنيفة ومحمد أن يقول الداعي : اللهم انى أسألك بمعقد العز من عرشك ، وأجازه أبو يوسف لما بلغه الأثر فيه » .

ويقول بشر بن الوليد : حدثنا أبو يوسف قال أبو حنيفة : « لا ينبغي لأحد أن يدعو الله الا به ، وأكره أن يقول : بمعقد العز من عرشك ، أو بحق خلقك » ، وهو قول أبي يوسف .. قال أبو يوسف : « معقد العز من عرشه هو الله ، فلا أكره هذا ، وأكره أن يقول : بحق فلان ، أو بحق أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام » ..

ويقول القدوري : « المسألة بخلقه لا تجوز ، لأنه لا حق للخلق على الخالق ، فلا تجوز وفاقاً » .

● وسئل صاحب « الفتاوى الأمانية » عن حكم نداء الرسول ﷺ والأولياء والمشايخ .. كأن يقول الانسان : يارسول الله أنت المعتمد ، ياسيد يابدى مدد ، نظرة ياست .. ونحو ذلك ..

١٨٠ (٦٣) الأعراف :

(٦٢) الدر المختار ج ٢ ، ص ٦٣٠

(٦٤) شرح الاحياء ، ج ٢ ص ٢٨٥

فأجاب رحمه الله : « ان من نادى غير الله بالصيغة المذكورة فى السؤال ونحوها .. ان اعتقد بأن غير الله تعالى يضر وينفع ، فهو شرك

» وان اعتقد التبرك بهم فقط .. فهو حرام وليس بشرك ..

« قال الله تعالى للنبي ﷺ : « قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا » (٦٥)

« كما قال : « قل انى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا » (٦٦) .

« واذا كان النبي ﷺ لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا .. فغيره من النبيين والأولياء من باب أولى .. فالماطلوب سؤال الله تعالى فى كل الأحوال ..

« قال تعالى : « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ، أجب دعوة

الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلمهم يرشدون » (٦٧) .

« وفى حديث ابن عباس — رضى الله عنهما — أن النبي ﷺ قال :

« اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله » (٦٨) .

ثم يقول فضيلته : « ويجوز سؤال الصالحين الأحياء فيما يقدرون عليه كطلب الدعاء منهم .. لا ما لا يقدرون عليه كشفاء المريض وطلب الرزق ونحو ذلك .. فان الله تعالى يقول : « وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يردك بخير فلا راد لفضله » (٦٩) .

« ويقول تعالى : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون

كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم

الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، ان عذاب ربك

كان محذورا » (٧٠) اهـ .

(٦٦) الجن : ٢١

(٦٨) أخرجه احمد والترمذى .

(٦٥) الأعراف : ١٨٨

(٦٧) البقرة : ١٨٦

(٦٩) يونس : ١٠٧

(٧٠) الفتاوى الامينية ، للشيخ أمين محمود خطاب السبكي ،

ج ١ ، ص ٢٢ ، ٢٣ — والآية : من سورة الاسراء : ٥٦ ، ٥٧

● ويقول فضيلة الشيخ عبد اللطيف مشتهرى : « ومن الخداع من تراهم يقصدون الى تلك الأماكن ويذكرون لك أننا لا نقول « مدد » ، ولا نقبل الأعتاب ، ولا نتمسح ، ولا نفعل شئنا من البدع التي ذكرتها .. »

« ونقول له : « يا أخى ، لقد علق الله الخير لهذه الأمة على أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .. قال رسول الله ﷺ : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعدا » .. فأين أنت من أمر المبتدعين بالمعروف ونهيهن عن المنكر ؟ »

« بل انا نراك مقرا لما يفعله هؤلاء بركونك اليهم وسلامك عليهم وابتسامك لهم .. والله يقول : « ولا تركوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار » (٧١) .. والقاعدة الفقهية : « أزل المنكر ، فان لم يزل فزل » .. »
« وان من علامات الساعة رجالا يرون المنكر ولا ينكرونه ، وهم من شرار القوم عند الله ، لأن الساكات على المعصية مشترك فيها ، وكاتم الحق شيطان أخرس .. »

« وبما أن قبور معظم من نسبه الناس الى الولاية مملوءة بالبدع والخرافات ، وأنواع الشرك ، والاستغاثة بغير الله ، والتوسل الى الولي فيما لا يطلب الا من الله ، والاستشفاع به وشد الرحال اليه ، وكل هذا منعه الاسلام .. فلأجل ذلك ينبغي البعد عن غشيان هذه المساجد والأماكن منعا لتوجه المسئولية والتنقصير فيها .. »

« وأخيرا ، لزم التتويه بأن زيارة المقابر الخالية من البدع بغرض أن ينفع الزائر نفسه بالعبرة ، وأن ينفع الميت بالدعاء له والاستغفار مطلوب .. وقد قال تعالى : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان » (٧٢) . »

« وانما سنت الزيارة للمقابر لأخذ العبرة والعظة ، وحتى يرى الانسان مصيره الذى لا مفر منه .. لذا وجب أن يكون مكان العبرة

(٧٢) الحشر : ١٠

(٧١) هود : ١١٣

هذا متمما بالهدوء ، ومتحليا بالتجرد من أعمال الدنيا الفانية « (٧٣) ا ه .

ولله در الامام ابن القيم حيث يقول : « نزع بحرين بغربالين ،
وحفر بئرين بابرتين ، وكنس أرض الحجاز فى يوم شديد الهواء
بريشتين ، وغسل عبيدين أسودين حتى يصيرا أبيضين : أهون على من
أن أقف على باب غير الله يضيع فيه ماء وجهي » ..

ويقول الشاعر :

لا تسألن بنى آدم حاجة وسئل الذى أبوابه لا تحجب
الله يغضب ان تركت سؤاله وبنى آدم حين يسئل يغضب
وفى الحديث الشريف .. قال رسول الله ﷺ : « من لم يسأل
الله يغضب عليه » ..

● كيف كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتوسل الى ربه ؟

التوسل الى الله تعالى هو التقرب اليه بعمل يرضاه .. وليس
مثل الصلاة والدعاء قربي من الله ..

فالدعاء والتضرع ، والاستعانة والاستغاثة .. كلها من القرب التى
تقرب العبد من ربه ، وتدخل كلها فى معنى التوسل ..
لذا كان رسول الله ﷺ اذا حزبه أمر يفرع الى الصلاة ، ويقول :
« أرحنا بها يا بلال » ..

وكان ﷺ يعرف مقام ربه وقدره ، ولهذا كان يدعو بأسمائه
تعالى وصفاته .. يتوسل اليه ويتضرع ، ويستغيث به ويستنصره ،
خاشعا متذللا ويقول فى دعائه : « أنت رب المستضعفين وأنت ربي » ،
ويقول : « اللهم أنت ربي وأنا عبدك » ..

لم يقل بحقك عليك يارب ، أو بجاهي عندك .. ولم يتوسل —
ﷺ — بالحقيقة المحمدية التي زعموها .. انما كان دعاؤه كله ، دعاء
من يعرف قدره الى جانب قدر الله وعظمته ..

وقدر الرسول ﷺ أرفع الأقدار كلها ، ومنزلته عند الله أعظم
المنازل .. انه — ﷺ أرفع قدرا وأعظم منزلة من جميع المخلوقات ..
أرفع قدرا وأعظم منزلة من الملائكة ، والانس والجن .. ولكنه ﷺ
عرف قدره الى جانب قدر الله وعظمته ، فلم يتجاوز في دعائه الى
ما ليس له ..

فصلى الله وسلم وبارك عليك ياسيدي يا رسول الله ، فقد بعثت
معلماً ..

ماتت خديجة رضى الله عنها ، وأبو طالب فى عام واحد ..

ولما مات أبو طالب .. نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى
ما لم تكن تتنازل منه فى حياة عمه أبى طالب .. فخرج رسول الله ﷺ
الى الطائف ، يلتمس النصرة من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه ، ورجاء
أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل ، فخرج اليهم وحده ..

ويحدثنا ابن هشام عن هذا فيقول : « لما انتهى رسول الله ﷺ
الى الطائف .. عمد الى نفر من ثقيف .. هم يومئذ سادة ثقيف
وأشرافهم ، وهم اخوة ثلاثة : عبد يابيل بن عمرو بن عمير ، ومسعود بن
عمرو بن عمير ، وحبيب بن عمرو بن عمير .. وعند أحدهم امرأة من
قريش من بنى جمح .. فجلس اليهم رسول الله ﷺ ، فدعاهم الى
الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الاسلام ، والقيام معه على
من خالفه من قومه ..

فقال له أحدهم : أنا أمرط ثياب الكعبة ان كان الله أرسلك !!

وقال الآخر : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ؟ !

وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدا ، لئن كنت رسولا من الله كما

تقول ، لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على

الله ، ما ينبغي لى أن أكلمك !!

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف ، وقد
تال لهم — فيما ذكر لى — : اذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى . . . وكره
رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيذئروهم (٧٤) ذلك عليه (٧٥) . . .
قال ابن هشام : قال عبيد بن الأبرص :

ولقد أتانى عن تميم أنهم ذئروا لقتلى عامر وتعصبوا

لم تفعل تثقيف ما كان يرجوه الرسول ﷺ من النصرة والمنعة . . .
ولكنهم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونونه ويصيحون به . . .
حتى اجتمع عليه الناس ، والجأوه الى حائط (٧٦) لعتبة بن ربيعة
وشيبة بن ربيعة ، وهما فيه . . . ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان
يتبعه ، فعمد الى ظل حيلة من عنب (٧٧) فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران
اليه ويريان ما لقى من سفهاء أهل الحوائف ، وقد لقى رسول الله ﷺ
— فيما ذكر لى — المرأة التى من بنى جمح فقال لها : ماذا لقينا
من أحمائك ؟

يقول ابن هشام : « فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال — فيما
ذكر لى : « اللهم اليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى وهوانى على
الناس . . . يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، الى
من تكلنى ؟ الى بعيد يتجهمنى ؟ أم الى عدو ملكته امرى ؟ . . . ان لم
يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى . . . أعوذ بنور
وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من
أن ينزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ،
ولا حول ولا قوة الا بك » (٧٨) .

ويحدثنا ابن هشام عن موقف آخر . . . وقف فيه الرسول ﷺ
يناشد ربه النصر الذى وعده . . . عندما خرجت قريش لمقاتلة المسلمين

(٧٤) أى يئروهم ويجرئهم . . .

(٧٥) الحائط : البستان .

(٧٦) أى شجرة عنب .

(٧٧) الأحماء : أقارب الزوج .

(٧٨) السيرة النبوية ، لابن هشام ، ط دار التراث العربى ،

فى غزوة بدر .. فبعد أن عدل — ﷺ — صفوف المسلمين ، رجع الى العريش الذى أقاموه له فدخله ومعه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، ليس معه فيه غيره .. يقول ابن هشام :

« ورسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر ، ويقول فيما يقول : « اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » . وأبو بكر يقول : يا نبى الله ، بعض مناشدتك ربك ، فان الله منجز لك ما وعدك .. وقد خفق رسول الله ﷺ خفقة وهو فى العريش ، ثم انتبه فقال : أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده ، على ثناياه النقع » (٧٩) .

لقد استنجد الرسول — ﷺ — بالله مباشرة .. وظل يضرع اليه تعالى حتى سقط — فيما يروى — رداءه عن منكبيه ، وأبو بكره رضى الله عنه خلفه يناشده أن يهدأ بالا ، فان الله تعالى سوف ينجز له وعده بالنصر .. لم يتخذ الرسول بينه وبين الله واسطة ، بل التجأ اليه وحده بالنداء والتضرع .. ولهذا جاءه المدد ملائكة السماء يقودهم جبريل — عليه السلام — آخذاً بعنان فرسه يقوده وعلى ثناياه النقع .. لم يقل بحقى عليك يارب ، أو بجاهى عندك ، ولم يتوسل اليه — ﷺ — بغير أسمائه وصفاته ..

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بعثنى العباس الى رسول الله ﷺ ، فأتيته ممسياً وهو فى بيت خالتي ميمونة .. فقام يصلى من الليل ، فلما صلى ركعتى الفجر قبل صلاة الصبح قال : « اللهم انى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى ، وتجمع بها شملى ، وتلم بها شعشى ، وترد بها الفتن عنى ، وتصلح بها دينى ، وتحفظ بها غائبى ، وترفع بها شهادى ، وترحى بها عملى ، وتبيض بها وجهى ، وتلهمنى بها رشدى ، وتعصمنى بها من كل سوء ..

« اللهم أعطنى ايماناً صادقاً ، و يقيناً ليس بعده كفر ، ورحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة ..

« اللهم انى أسألك الفوز عند القضاء ، ومنازل الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء ، ومرافقة الأنبياء .. »

« اللهم انى أنزل بك حاجتى وان ضعف رأبى وقامت حيلتى وقصر عملى وافتقرت الى رحمتك .. فأسألك ياكافى الأمور ، ويأشأفى الصدور ، كما تجير بين البحور أن تجيرنى من عذاب السعير ، ومن دعوة الثبور ، ومن فتنة القبور .. »

« اللهم ما قصر عنه رأبى ، وضعف عنه عملى ، ولم تبلغه نيتى وأمنيته من خير وعدته أحدا من عبادك ، أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك ، فانى أربب اليك فيه ، وأسألكه يارب العالمين .. »

« اللهم اجعلنا هادين مهتدين ، غير ضالين ولا مضلين ، حربا لأعدائك ، وسلما لأوليائك ، نحب بحبك من أطاعك من خلقك ، ونعاضد بعداوتك من خالفك من خلقك .. »

« اللهم هذا الدعاء عليك الاجابة ، وهذا الجهد وعابك التكلان ، وانا لله وانا اليه راجعون ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، ذى الحبل الشديد ، والأمر الرشيد .. أسألك الأمن يوم الوعيد ، والجنة يوم الخلود ، مع المقربين الشهود ، والركع السجود ، الموفين بالعهود ، انك رحيم ودود ، وأنت تفعل ما تريد .. »

« سبحان الذى لبس العز وقال به .. سبحان الذى تعطف بالمجد وتكرم به .. سبحان الذى لا ينبغى التسبيح الا له .. سبحان ذى الفضل والنعم .. سبحان ذى العزة والكرم .. سبحان الذى أحصى كل شىء بعلمه .. »

« اللهم اجعل لى نورا فى قلبى ، ونورا فى قبرى ، ونورا فى سمعى ، ونورا فى بصرى ، ونورا فى شعرى ، ونورا فى بشرى ، ونورا فى لحمى ، ونورا فى دمى ، ونورا فى عظامى ، ونورا من بين يدى ، ونورا من خلفى ، ونورا عن يمنى ، ونورا عن شمالى ، ونورا من فوقى ، ونورا من تحتى .. »

« اللهم زدنى نورا ، وأعطني نورا ، واجعل لى نورا » (٨٠) .

هكذا كان الرسول ﷺ يضرع الى ربه .. يتوسل اليه ويستغيث به .. بالخشوع كله ، وبالتواضع كله ، فقد عرف مقام ربه .. فصلى الله وسلم وبارك عليه ، فقد بعثه تعالى للناس معلما ومرشدا .. وهكذا كان شأن المسلمين فى الصدر الأول للاسلام .. يتضرعون الى الله تعالى بالخشية والخضوع ، والسكون والهدوء ، وحسن الأدب مع الحق تبارك وتعالى .. رغبة رهبة .. فهو سبحانه رب العالمين ، خالق الخلق ورازقه .. وهو القائل : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية » (٨١) والقائل : « انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا » (٨٢) .

* * *

● الدعاء .. فى الاسلام :

يقول الله تعالى : « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ، أجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لى وئؤمنوا بى لطمهم يرشدون » (٨٣) .

سأل بعضهم الرسول ﷺ : أقریب ربنا فنناجیه ، أم بعيد فننادیه .. فقال جل شأنه : اذا سألك - يا محمد - عبادى أين أنا ؟ فانى قريب منهم ، أسمع دعاءهم ، وأجيب دعاء الداعى منهم اذا دعانى ، فليستجيبوا لى بالطاعة ، وليصدقوا أنى أجزل لهم الثواب والكرامة .. وبهذا يهتدوا الى طريق الرشاد ..

وقال جل وعلا : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » (٨٤) .

فالله تعالى يقول : اعبدونى وأخلصوا لى العبادة ، أجب دعاءكم .. فان الذين يتعظمون عن افرادى بالعبادة والألوهية سأدخلهم جهنم صاغرين ..

(٨١) الاعراف : ٥٥

(٨٢) البقرة : ١٨٦

(٨٠) رواه الطبرانى ..

(٨٢) الانبياء : ٩٠

(٨٤) غافر : ٦٠

وهو تعالى يسمى الدعاء عبادة .. ولهذا قال رسول الله ﷺ
فيما يرويهِ النعمان بن بشير رضى الله عنه : « ان الدعاء هو العبادة »
— ثم قرأ الآية (٨٥) .

وقال ﷺ : « الدعاء مخ العبادة » (٨٦) .

ويقول الله تعالى : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية ، انه لا يحب
المعتدين » (٨٧) .

أى أخلصوا الدعاء لربكم ، تذلا واستكثنة لطاعته ، لا جهارا
ومراءاة ، فهو تعالى — لا يحب المجاوزين الحد فى الدعاء ، برفع الصوت
والصياح .. ولهذا يقول النبى ﷺ : « أيها الناس ، ارفقوا على
أنفسكم فانكم لا تدعون أصما ولا غائبا ، انكم تدعون سميعا بصيرا ،
وهو معكم ، والذي تدعونه أقرب الى أحدكم من عنق راحلته » ..

ويقول جل شأنه : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ، أيا ما تدعوا
فله الأسماء الحسنى ، ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك
سبيلا » (٨٨) .

سمع أبو جهل الرسول ﷺ يدعو فى صلاته : يا الله ، يا رحمن ..
فقال : ان محمدا ينهانا أن نعبد الهين وهو يدعو الها آخر .. فنزلت
هذه الآية .. فالله تعالى يقول لنبيه ﷺ : قل — يا محمد — لهؤلاء
المشركين ، المنكرين لاسم الرحمن : ادعوا الله — أيها القوم — أو ادعوا
الرحمن بأى أسمائه جل وعلا تدعوا ربكم فانما تدعون الها واحدا ،
له الأسماء الحسنى ، ولا تجهر — يا محمد — بقراءتك فى صلاتك فيؤذيك
المشركون ، ولا تخفض صوتك حتى لا يسمع أصحابك .. واطلب طريقا
وسطا بين الخفض والاعلان . يقول ابن عباس : كان رسول الله ﷺ
يرفع صوته بالقراءة ، فاذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ..
فنزلت هذه الآية ..

(٨٥) رواه أصحاب السنن . (٨٦) رواه أنس .
(٨٧) الأعراف : ٥٥ . (٨٨) الاسراء : ١١٠ .

والمقصود .. أن يكون الدعاء .. وأن تكون الصلاة والعبادات كلها بأدب وخشية وخضوع ، وسكون وهدوء ، ورغبة ورهبة ..

● ومن شروط الدعاء .. افراد الله وحده به .. فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنت خلف النبي ﷺ يوما فقال : « يا غلام ، انى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك .. اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله .. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك ، وان اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك .. رفعت الأقاليم وجفت الصحف » (٨٩) .

● وأن يخلص في دعائه لله تعالى .. لقوله جل شأنه : « فادعوا الله مخلصين له الدين » (٩٠) .. فانعدام الاخلاص ، أو دخول الرياء على النفس يفسد الدعاء على صاحبه ولا يستجيب الله له .

● وأن يقدم بين يدي دعائه عمل صالح .. ليكون في ذلك وسيلة الى الاجابة ..

● وأن يتجنب الحرام في مأكله ومشربه وملبسه .. لأن ملابسة المعصية مقتضية لعدم الاجابة .. يقول تعالى : « انما يتقبل الله من المتقين » (٩١) .

ويروى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : تليت هذه الآية عند رسول الله ﷺ : « يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا » (٩٢) ، فقام سعد ابن أبى وقاص — رضى الله عنه — فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال له النبى ﷺ : « ياسعد ، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذي نفس محمد بيده : ان العبد ليتذوق اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به » ..

(٩٠) غافر : ١٤

(٩٢) البقرة : ١٦٨

(٨٩) رواه الترمذى .

(٩١) المائدة : ٢٧

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« ان الله طيب لا يقبل الا طيبا ، وان الله أمر المؤمنين بما أمر به
المرسلين فقال : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ، انى
بما تعملون عليهم » (٩٣) وقال : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات
ما رزقناكم » (٩٤) •• ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر يمد يديه
الى السماء : يارب يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه
حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب له ؟ (٩٥)

● وأن لا يدعو باثم ولا قطيعة رحم •• يقول رسول الله ﷺ :
« لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع باثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل »
قيل : يارسول الله ، ما الاستعجال ؟ قال : « يقول قد دعوت وقد دعوت
فلم أر يستجيب لى فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء » (٩٦) •

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« لا يتمنى أحدكم الموت ولا يدع به من قبل أن يأتيه ، انه اذا مات
أحدكم انقطع عمله ، وانه لا يزيد المؤمن عمره الا خيرا » (٩٧) •

وعن أنس رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ عاد رجلا من
المسلمين قد خفت [أى ضعف] فصار مثل الفرخ [أى ولد الطائر]
فقال له رسول الله ﷺ : « هل كنت تدعو بشىء - أو تسأله اياه » ؟ ،
قال : نعم ، كنت أقول : اللهم ما كنت معاقبى به فى الآخرة فعجله
لى فى الدنيا •• فقال رسول الله ﷺ : « سبحان الله ، لا تطيقه -
أو لا تستطيعه - أفلا قلت : اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة
حسنة وقتنا عذاب النار » ؟ •• قال : فدعا الله له فشفاه (٩٨) ••

وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تدعوا

(٩٤) البقرة : ١٧٢

(٩٣) المؤمنون : ٥١

(٩٥) رواه مسلم والترمذى •

(٩٦) رواه مسلم ، ويستحسر : أى ينقطع عن الدعاء •

(٩٨) رواه مسلم •

(٩٧) رواه مسلم •

على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة يسئل فيها عطاء فيستجيب لكم» (٩٩) .

● ويشرنا أبو الورداء رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ كان يقول : « دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة ، عند رأسه ملك موكل ، كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به : آمين ، ولك بمثل » (١٠٠) .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه : « ان العبد لا يخطئه من الدعاء الا احدى ثلاث : اما ذنب يغفر له ، واما خير يعجل له ، واما خير يدخر له » .

ويقول ابن مسعود : « سلوا الله تعالى من فضله ، فان الله تعالى يحب أن يسئل ، وأفضل العبادة انتظار الفرج » .
وفى الحديث القدسي الذي يرويه أبو ذر الغفاري رضى الله عنه يقول تعالى : « ياعبادى انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا » .

« ياعبادى ، كلكم ضال الا من هديته ، فاستهدونى اهدكم . .
« ياعبادى ، كلكم جائع الا من اطعمته ، فاستطعمونى اطعمكم . .
« ياعبادى ، كلكم عار الا من كسوته ، فاستكسونى اكسكم . .
« ياعبادى ، انكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفرونى أغفر لكم . .
« ياعبادى ، انكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . .

« ياعبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وانسكم وجنكم : كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئا . .
« ياعبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وانسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئا . .

« يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وانسكم وجنكم ، قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي ، إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر .. »
« يا عبادي ، إنما هي أعمالكم ، أحصيتها لكم ثم أوفيكم أياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (١٠١)

« ويحدثنا الامام الغزالي عن آداب الدعاء (١٠٢) فيقول : « آداب الدعاء ، وهي عشرة :

● الأول : « أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة ، كيوم عرفة من السنة ، ورمضان من الشهر ، ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت انسحر من ساعات الليل .. قال تعالى : « وبالأسحار هم يستفرون » (١٠٣) .. وقال ﷺ : « ينزل الله تعالى كل ليلة الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول عز وجل : من يدعوني فأستجيب له ؟ ، من يسألني فأعطيه ؟ ، من يستغفرني فأغفر له » .

« وقيل ان يعقوب عليه السلام انما قال : « سوف أستغفر لكم ربي ، انه هو الغفور الرحيم » (١٠٤) ليدعو في وقت السحر ، فقيل انه قام في وقت السحر يدعو وأولاده يؤمنون خلقه ، فأوحى الله عز وجل اليه : أني قد غفرت لهم وجعلتهم أنبياء » ..

● الثاني « أن يعتنم الأحوال الشريفة .. قال أبو هريرة رضي الله عنه : « ان أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف في سبيل الله تعالى ، وعند نزول الغيث ، وعند اقامة الصلوات المكتوبة ، فاغتنموا الدعاء فيها » ..

(١٠١) رواه مسلم .

(١٠٢) احياء علوم الدين ، لأبي حامد الغزالي ، ط . الشعب ،

ج ٣ ص ٥٤٩ — ٥٥٧ بتصرف ..

(١٠٤) يوسف : ٩٨

(١٠٣) انذاريات : ١٨

« وقال مجاهد : « ان الصلاة جعلت فى خير الساعات ، فعليكم بالدعاء خاف الصلوات » •

« وقال ﷺ : « الدعاء بين الأذان والاقامة لا يرد » ••

« وقال ﷺ أيضا : « الصائم لا ترد دعوته » ••

« وبالحقيقة ، يرجع شرف الأوقات الى شرف الحالات أيضا ••
اذ وقت السحر وقت صفاء القلب واخلاصه ، وفراغه من المشوشات ،
ويوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع الهمم وتعاون القلوب على
استقرار رحمة الله عز وجل ، فهذا أحد أسباب شرف الأوقات سوى
ما فيها من أسرار لا يطلع البشر عليها ، وحالة السجود أيضا أجدر
بالاجابة •• قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ :
« أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد ، فأكثرُوا فيه
من الدعاء » ••

« وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال :
« انى نهيت أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدا ، فأما الركوع فعظموا
فيه الرب تعالى ، وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء ، فإنه قمن أن
يستجاب لكم » ••

● الثالث : « أن يدعو مستقبلا القبلة ، ويرفع يديه بحيث يرى
بياض ابطيه •• روى جابر بن عبد الله رضى الله عنه « أن رسول الله
ﷺ : أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت
الشمس » ••

« وقال سلمان رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « ان ربكم
حيى كريم يستحي من عبده اذا رفعوا أيديهم اليه أن يردها صفرا » •
« وروى أنس رضى الله عنه « أنه ﷺ : كان يرفع يديه حتى يرى
بياض ابطيه فى الدعاء ولا يشير بأصبعيه » ••

« وروى أبو هريرة رضى الله عنه « أنه ﷺ مر على انسان يدعو
ويشير بأصبعيه السبابتين ، فقال ﷺ : « أحد أحد » — أى اقتصر
على الواحدة ••

« وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : « ارفعوا هذه الأيدي قبل أن تغل بالأغلال » ..

« ثم ينبغي أن يمسح بهما على وجهه فى آخر الدعاء .. قال عمر رضى الله عنه : « كان رسول الله ﷺ إذا هد يديه فى الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه » ..

« وقال ابن عباس رضى الله عنهما : « كان ﷺ : إذا دعا ضم كفيه وجعل بطونهما مما يلي وجهه » ..

« فهذه هيآت اليد ، ولا يرفع بصره الى السماء .. قال ﷺ : « لينتھين أقوام عن رفع أبصارهم الى السماء عند الدعاء ، أو اتخطفن أبصارهم » ..

● الرابع : « خفض الصوت بين المخافة والجهر .. لما روى أن أبا موسى الأشعري رضى الله عنه قال : قدمت مع رسول الله ﷺ فلما دنونا من المدينة كبر وكبر الناس ورفعوا أصواتهم .. فقال النبى ﷺ : « يا أيها الناس ، ان الذى تدعون ليس بأصم ولا غائب ، ان الذى تدعون بينكم وبين أعناق ركابكم » ..

« قالت عائشة رضى الله عنها فى قوله عز وجل : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا » (١٠٥) « أى بدعائك » .. « وقد أثنى الله عز وجل على نبيه زكريا عليه السلام قال : « ان نادى ربه نداء خفيا » (١٠٦) ..

« وقال عز وجل : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية » (١٠٧) ..

● الخامس : « أن لا يتكلف السجع فى الدعاء .. فان حال الداعى ينبغي أن يكون حال متضرع ، والتكلف لا يناسبه .. قال ﷺ : « سيكون قوم يعتدون فى الدعاء » ..

« وقد قال عز وجل : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية » : قيل معناه التكلف ، للأسجاع ، والأولى أن لا يجاوز الدعوات الماثورة ، فانه قد يعتدى

فى دعائه فيسأل ما لا تقتضيه مصلحته .. فما كل أحد يحسن الدعاء ..
ولذلك روى عن معاذ رضى الله عنه أن العلماء يحتاج اليهم فى الجنة ،
اذ يقال لأهل الجنة : تمنوا ، فلا يدرون كيف يتمنون حتى يتعلموا
من العلماء .

« وقد قال ﷺ : « اياكم والسجع فى الدعاء .. حسب أحدكم
أن يقول : اللهم انى أسألك الجنة وما قرب اليها من قول وعمل ،
وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول وعمل » ..

« وفى الخبر : « سيأتى قوم يعتدون فى الدعاء والظهور » ..
« ومر بعض السلف بقاص يدعو بسجع فقال له : أعلى الله تبالغ ؟ ،
أشهد أقد رأيت حبيبا العجمى يدعو وما يزيد على قوله : « اللهم اجعلنا
جيدين ، اللهم لا تنضحنا يوم القيامة ، اللهم وفقنا للخير » ، والناس
يدعون من كل ناحية وراءه ، وكان يعرف بركة دعائه .
« وقال بعضهم : ادع بلسان الذلة والافتقار ، لا بلسان الفصاحة
والانطلاق

« واعلم أن المراد بالسجع ، هو المتكلف من الكلام ، فان ذلك
لا يلائم الضراعة والذلة .. والافى الأدعية المأثورة عن رسول الله
ﷺ كلمات متوازنة لكنها غير متكلفة ، كقوله ﷺ : « أسألك الأمن يوم
التويعيد ، والجنة يوم الخلود ، مع المقربين الشهود ، والركع السجود ،
الموفين بالعهود ، أنك رحيم ودود ، وأنتك تفعل ما تريد » .. وأمثال ذلك ..
« فليقتصر على المأثور من الدعوات ، أو ليلتمس بلسان التضرع
والخشوع من غير سجع وتكلف .. فالتضرع هو المحبوب عند الله
عز وجل » ..

● السادس : « التضرع والخشوع ، والرغبة والرهبة .. قال
الله تعالى : « انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا ،
وكانوا لنا خاشعين » (١٠٨) .. وقال عز وجل : « ادعوا ربكم تضرعا
وخفضة ، انه لا يحب المعتدين » (١٠٩) .

« وقال ﷺ : « إذا أحب الله عبدا ابتلاه حتى يسمع تضرعه » ..
● السابع : « أن يجزم الدعاء ، ويوقن بالاجابة ، ويصدق رجاءه
فيه .. قال ﷺ : « لا يقل أحدكم اذا دعا : اللهم اغفرلى ان شئت ،
اللهم ارحمنى ان شئت ، ليعزم المسألة فانه لا مكره له » ..
« وقال ﷺ : « اذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة ، فان الله لا يتعاضمه
شئ » ..

« وقال ﷺ : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالاجابة ، واعلموا أن
الله عز وجل لا يستجيب دعاء من قلب غافل » ..
« وقال سفيان بن عيينة رضى الله عنه : « لا يمنعن أحدكم من
الدعاء ما يعلم من نفسه ، فان الله عز وجل أجاب دعاء شر الخلق
« ابليس » — لعنه الله — اذ قال : « أنظرنى الى يوم يبعثون »
قال انك من المنظرين » (١١٠) .

● الثامن : « أن يلح فى الدعاء ويكرره ثلاثا .. قال ابن مسعود
رضى الله عنه : « كان عليه الصلاة والسلام اذا دعا دعا ثلاثا ، واذا
سأل سأل ثلاثا » ..

« وينبغى ألا يستبطىء الاجابة ، لقوله ﷺ : « يستجاب لأحدكم
ما لم يعجل ، فيقول قد دعوت فلم يستجب لى ، فاذا دعوت فاسأل الله
كثيرا فانك تدعو كريما » ..

« وقال بعضهم : « انى أسأل الله عز وجل منذ عشرين سنة حاجة
وما أجابنى ، وأنا أرجو الاجابة .. سألت الله تعالى أن يوفقنى لترك
ما لا يعينى » ..

« وقال ﷺ : « اذا سأل أحدكم ربه مسألة فتعرف الاجابة ،
فليقل : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، ومن أبطأ عنه شئ من
ذلك فليقل : الحمد لله على كل حال » ..

● التاسع : « أن يفتتح الدعاء بذكر الله عز وجل ، فلا يبدأ
بالسؤال .. قال سلمة بن الأكوع رضى الله عنه : ما سمعت رسول الله

ﷺ يستفتح الدعاء الا استفتحه يقول : « سبحان ربي العلى الأعلى الوهاب » ..

وقال أبو سليمان الندارانى رحمه الله : « من أراد أن يسأل الله حاجة ، فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ ، ثم يسأله حاجته ، ثم يختتم بالصلاة على النبي ﷺ .. فان الله عز وجل يقبل الصلاتين ، وهو أكرم من أن يدع ما بينهما » ..

وروى فى الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اذا سألتكم الله عز وجل حاجة فابدأوا بالصلاة على ، فان الله تعالى أكرم من أن يسئل حاجتين ، فيقضى احدهما ويرد الأخرى » (١١٠) .

● العاشر : « وهو الأدب الباطن ، وهو الأصل فى الاجابة : التوبة ، ورد المظالم ، والاقبال على الله عز وجل بكنه الهمة .. فذلك هو السبب القريب فى الاجابة » اهـ .

* * *

سئل ابراهيم بن أدهم : لم ندعوا فلا يستجاب لنا ؟ فقال : « ماتت القلوب فى عشرة أشياء : عرفتم الله ولم تؤدوا حقه ، وقرأتم كتاب الله ولم تعملوا به ، وادعيتم حب الرسول وتركتم سنته ، وادعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه ، وقلتم : نحب الجنة . ولم تعملوا لها ، وقلتم : نخاف النار . ورهنتم أنفسكم بها ، وقلتم : ان الموت حق . ولم تستعدوا له ، واشتغلتم بعيوب اخوانكم ونبذتم عيوبكم ، وأكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها ، ودفنتم موتاكم ولم تعنبروا بهم .. فأنى يستجاب لكم ؟ !

* * *

وبعد .. يقول الله تعالى على لسان نوح عليه السلام : « استغفروا ربكم انه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . ما لكم لا ترجون لله وقارا » (١١١) .

(١١٠) رواه أبو طالب المكي . (١١١) نوح : ١٠ - ١٣ (٢٤ - الله توحيد)

يقول نوح عليه السلام ناصحا قومه : « يا قوم ، اطلبوا من ربكم مغفرته على كفركم وعصيانكم .. فهو تعالى الغفور ، ومن شأن الغفور غفران الذنوب لمن يرجع اليه .. »

انكم ان فعلتم ، بيارك لكم في أرزاقكم وأولادكم .. فيرسل السماء عليكم بالمطر الغزير ، والخير الوفير .. ويمددكم بالأموال والبنين ، وهما زينة الحياة الدنيا ..

وان من بركة رضاه تعالى عليكم - التي تجدونها باستغفاركم - أن يمنعكم في حياتكم الدنيا ، فيجعل لكم البساتين الوارفة ، تنعمون بجمالها وثمارها .. ويجعل من تحتكم الأنهار تشربون من مياهها ، وتسقون منها زروعكم ومواشيكم ..

وانكم ان لم تقبلوا ما أقوله لكم - من طلب المغفرة من الله تعالى - فانكم لا تكونون قد عظمت الله حق تعظيمه .. أو تؤدوا واجب الشكر على نعمته ..

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والله انى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » (١١٢) .

وعن شداد بن أوس رضى الله عنه : عن النبي ﷺ قال : « سيد الاستغفار أن تقول : اللهم أنت ربى لا اله الا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت .. أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبي : اغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب الا أنت .. »

قال : « ومن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة » (١١٣) .

والاستغفار .. يجب أن يكون مسبقاً بالاقلاع عن المعاصى ، والرجوع الى الله تعالى بالتوبة والندم ..

فالتوبة والندم ، والاقلاع عن الذنوب والمعاصي ، ثم الاستغفار الى الله تعالى برجاء التوبة وطمعا في المغفرة .. هو من أفضل الدعاء ..
وقد أخبرنا - تعالى - أن رضاه ومغفرته مصدران من مصادر البركة في الأموال والبنين .. وعاملان من عوامل الاستقرار في المعيشة ، والتمتع بطيبات الحياة الدنيا .. فضلا عن الرضا والرضوان في الحياة الأخرى ..

وعلى النقيض من ذلك .. نقرأ قوله تعالى : « فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » (١١٤) .

لقد وعد الله عباده المؤمنين .. بأن يمدهم بالهدى والرشاد ، فمن اتبع منهم هداى وامتنل لأمره ، فلا يقع في المآثم في الدنيا ، فانه لا يشقى بالعذاب في الآخرة ، فضلا عن رعاية الله وحمايته له من الشرور في الدنيا ..

أما من أعرض عن هديه تعالى وطاعته .. فانه يحيا في الدنيا حياة لا سعادة فيها .. فتراه لا يقنع بما قسم الله له ، ولا يستسلم الى قضاء الله تعالى وقدره فيها .. حتى اذا كان يوم القيامة جاء الى موقف الحساب مأخوذا بذنوبه ، عاجزا عن الحجة التي يعتذر الى ربه بها .. وكما كان في دنياه أعمى البصيرة عن النظر في آيات الله ، فان الله تعالى يعميه عن الحجة التي يعتذر بها في الآخرة .. جزاء وفاقا على تعاميه عن أحكام ربه في حياته الدنيا ..

ويسأل هذا الشقى ربه - في ذلك الموقف العصيب ، وكله فزع ورعب - : يارب ، كيف أنسيته حجتى ، وأعجزتني عن المعذرة ،

ووقفتنى أمامك كالأعمى وقد كنت فى الدنيا أبصر ما حولى ، وأجادل
وأدافع ؟ !

فيجيبه تعالى : بأن الأمر فى شأنك كما وقع : جاءتك دلائلنا ورسلنا
فى الدنيا فنسيتها ، وتعاميت عنها ، ولم تؤمن بها .. وكذلك اليوم
تترك منسيا فى العذاب والهوان ..

هذا الجزاء السيء ، يجزى الله به فى الدنيا المقبلين على المعصية ،
المكذبين بالله وآياته ، ولعذاب الآخرة أشد ألماً ، وأدوم مما كان
فى الدنيا ..

« رينا آتينا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب
النار » (١١٥) .

« رينا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ، انك
أنت الوهاب » (١١٦) .

« رينا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين
إماما » (١١٧) .

« رينا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطانا ، رينا ولا تحمل علينا إصراً
كما حملته على الذين من قبلنا ، رينا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ،
واعف عنا واعر لنا وأرحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم
الكافرين » (١١٨) .

« رينا اتنا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ،
رينا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . رينا وآتانا
ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة ، انك لا تخلف الميعاد » (١١٩) .

فאלلهم ياربنا .. أصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا الى أنفسنا طرفة
عين ، وأصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح دنيانا التى فيها

(١١٦) آل عمران : ٨

(١١٨) البقرة : ٢٨٦

(١١٥) البقرة : ٢٠١

(١١٧) الفرقان : ٧٤

(١١٩) آل عمران : ١٩٣ ، ١٩٤

معاشتنا ، وأصلح انا آخرتنا التي فيها معادنا •• وألهمنا رشدنا ،
وأعدنا من شر أنفسنا ، واكفنا بحلالك عن حرامك ، وأغننا بفضلك
عن سواك ••

اللهم لا سهل الا ما جعلته سهلا •• وأنت تجعل الحزن ان شئت
سهلا ، فنعوذ بك ياربنا من الكفر والفقير ، ونعوذ بك من الهم والحزن ،
ونعوذ بك من العجز والكسل ، ونعوذ بك من الجبن والبخل ، ومن غلبة
الدين وقهر الرجال ••

* * *